الدوائر المتداخلة

إحياء التراث . الترجمة . التأليف

أ.د/ حامد طاهر

رقم الايداع بدار الكتب
٩٥ / ٧٥٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

موضوع هذا الكتاب ظل يشغل بالى لعشرات السنين . وهو كما يبدو من عنوانه وموضوعاته (إحياء التراث ، والترجمة ، والتأليف) يتناول الدوائر الثلاث التى يصدر فيها النشاط العلمى والثقافى المكتوب باللغة العربية .

وعلى الرغم من ان بدايتى العلمية اتصلت بتحقيق التراث ، وذلك عندما أتيح لى – وأنا طالب بالمرحلة الثانوية فى الستينيات – أن ألتقى بأحد أعلام المحققين فى مصر، وهو المرحوم السيد أحمد صقر ، الذى تعرفت على يديه ، وفى مكتبته الثمينة ، على نوادر المخطوطات، وكذلك الطبعات الأوربية والأميرية للمؤلفات العربية ، وبتوجيه منه نسخت الكثير من المخطوطات المشرقية (مثل مسند ابن أبى شيبة) والمغربية (مثل الإلماع للقاضى عياض) ، وتعلمت طريقة مقابلة النسخ ، وتخريج مفرداتها ، ووضع الفهارس المختلفة لها . . أقول إنه على الرغم من ذلك كتبت عن حركة الترجمة ، أثناء إقامتى بباريس سنة 1979 ، وكتبت عن حركة التأليف فى العالم العربى سنة 1986 .

والذى أقصد إليه من ذكر هذه الحكاية أن أبين للقارئ الكريم أن موضوع هذا الكتاب بمحاوره الثلاثة كان ماثلاً فى ذهنى منذ وقت طويل . وأنه عندما يصدر اليوم، فليس يعنى ذلك أننى جمعت مقالاته من هنا وهناك لأصنع منها شيئاً مركباً ، وانما هو فى الواقع عبارة عن فكرة واحدة ذات جوانب ثلاثةُ .

إن النهضة الفكرية والثقافية والأدبية فى أى بلد، وأى عصر ، تركز فى أساسها وتطورها داخل هذه الدوائر الثلاث . وقد يكون من منطق الأمور أن يأتى تحقيق المخطوطات فى البداية ، ثم تتبعه حركة الترجمة ، وأخيرا يأتى التأليف الإبداعى . ولكن الذى حدث أن هذه الدوائر الثلاث قد بدأت نهضتها فى القرن الماضى متجاورة ، بل إنها كانت تتداخل مع بعضها أحياناً . ولعلنا لا نكاد نلتقى بأحد أعلام الفكر والثقافة المحدثين، فى عالمنا العربى ، إلا ونجده قد حقق بعض المخطوطات ، وترجم اخرى ، فإن تحقيق التراث – وبمعنى أشمل – إحياء التراث يتطلب قدراً من التأليف لا محالة ، وكذلك الترجمة. أما التأليف فإنه لا يستغنى عن الاعتماد على التراث أو الكتب المترجمة . . وهكذا يبدو التلاحم والتواصل مستمراً بين الدوائر الثلاث ، مما يجعل تناولها فى كتاب واحد أمرا مشروعا .

لكن ماذا بعد المشروعية ؟ تبرز على الفور ضرورة النظرة الشاملة لثلاث دوائر تعرضت – مع الأسف – للفصل المتعسف بينها . وهو الأمر الذى أحدث غربة بين المشتغلين فى كل دائرة منها عن زملائهم المشتغلين فى الدائرة المجاورة . وبدلا من أن يستمر التواصل بينهم حدث انعزال ، ترتبت عليه نتائج خطيرة . ومن أهم ما نتج عن ذلك : تلك المشكلة المستعصية التى أصبحت تعرف بمشكلة الأصالة والمعاصرة . فالمشتغلون بالتراث ينتمون إلى طائفة لا ترى إلا فى القديم عناصر الجودة وأهلية الاستحقاق . بينما العاملون فى مجال الترجمة يشعرون بأنهم أبناء العصر الحاضر ، وأصحاب الحق وحدهم فى صنع المستقبل . وبين الفريقين تردّد المؤلفون الذىن مال بعضهم إلى التراث بماضويته ، والبعض الآخر إلى الترجمة بمعاصرتها ومستقبلها .

قد يقال إن الأصالة والمعاصرة توجد فى مستويات أخرى كثيرة ، وهذا حق . لكننى أنبه هنا على أهميتها فى مجال الثقافة والفكر ، وعلى مستوى التعبير المكتوب أو المطبوع . ولعل هذا المستوى يمثل أول المستويات التى ينبغى البحث فيه عن جذور مشكلة الأصالة والمعاصرة ، تمهيدا لوضع الحلول المناسبة لها .

لكننا نظل فى حدود الدوائر الثلاث . ومن داخلها نتعرف على جوانب القوة والضعف ، وبالتالى تتاح لنا

فرصة طرح الأسئلة ، ورصد السلبيات ، وتقديم بعض المقترحات التى يمكن أن تسهم بحلول عملية وبناءة . وسوف يتم الاعتماد على الملاحظة النابعة مباشرة من المعايشة الخاصة فى التعامل الطويل مع مفردات كل دائرة على حدة ، دون فقدان النظرة إلى الدائرتين الأخريين .

إن الحديث عن النفس صعب ، وثقيل . ولكننى فى هذه المقدمة أجدنى مضطراً إلى التصريح بتجربتى الطويلة مع تحقيق التراث ، والترجمة ، والتأليف . . أى أننى ممن عملوا فى الدوائر الثلاث بصورة مستقلة أحياناً وبالجمع بينها فى بعض الأحيان . كما أن متابعتى المستمرة لرسائل الماجستير والدكتوراه التى أشرف عليها فى قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم ، أو أشترك فى مناقشتها فى سائر الجامعات المصرية ، تتيح لى رؤية مباشرة لما تتعرض له كل دائرة من الدوائر الثلاث ، وما يجرى فيها من نشاط وما يحدث فيها من صعود أو هبوط .

وإذا كان من غير المستحب أن تقدم النتائج فى مقدمة كتاب ، فإننى أجد من الضرورى أن أشير هنا فقط إلى أن ما تم اكتشافه من السلبيات فى كل دائرة على حدة يعتبر مؤشرا خطيرا لابد من التنبيه إليه ، وضرورة مواجهته ، والعمل على تلافيه من خلال وضع الخطط

الكفيلة بتصحيح الأخطاء ، وإقامة البنيان الصحيح بأفضل المناهج الصحيحة . وقد كان لى فى هذا الصدد بعض المقترحات التى أتمنى أن تجد صداها لدى زملائى المشتغلين فى دوائر الثقافة العربية الثلاث .

وفى ختام هذه المقدمة يطيب لى أن أطرح أمنية ، ربما تتحقق فى يوم قريب ، وهى أن يشعر كل من (المحقق ، والمترجم ، والمؤلف) أنهم زملاء مهنة واحدة عليهم أن يتسابقوا فيها بالتنافس ، لا أن يتصارعوا فيما بينهم بالعداء ، وأن يدركوا جيدا أن الدوائر التى يعملون فيها ، وقد تبدو مختلفة ، إنما هى كالأوانى المستطرقة لن يرتفع الماء فى إحداها دون أن تمتلئ الأخريات .

وبعد . . فإن عمل الكتابة لا يتقدم إلى الأمام إلا إذا كانت خلفه تقاليد راسخة . وهذه التقاليد لا تستقر بين يوم وليلة ، وإنما تحتاج إلى عشرات من السنين ، وربما مئات . وقد يبدو أن الحياة تسير بدون الفكر المدوّن ، ولكنها لا تستقيم أبدا بدونه . ومن هنا كان من الضرورى أن ننبه الأجيال باستمرار إلى أهمية الفكر ، وإلى أفضل القوالب التى يتم وضعه فيها ، أو حفظه بها .

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أتقدم بصادق الشكر إلى زملائى الأساتذة ، وطلاب الدراسات العليا الذين ناقشت معهم الكثير من أفكار هذا الكتاب ، وكان

لملاحظاتهم ، وأحيانا لتحفظاتهم ، أكبر الأثر فى تعديل بعض النقاط ، أو العدول عنها تماما . . والله ولى التوفيق .

أ.د. حامد طاهر

الفصل الأول

(أ) إحياء التراث

يعنى مصطلح (إحياء التراث) وجود تركة ثقافية راكدة ، أو غير مستغلة ، وأن الأمر يتطلب استثمارها وبعث النشاط فيها من جديد . وقد ارتبط مفهوم إحياء التراث العربى والإسلامى بتاريخ النهضة الحديثة التى تزامن مع بداية القرن التاسع عشر فلم يكن قبل هذا التاريخ يطلق على كتب المؤلفين العرب والمسلمين : "تراثا"[1] ، وإنما كانت تتم الإشارة إليها على أساس تقسيم : (متقدمين ، ومتأخرين) والمقصود بالمتقدمين : علماء القرون الخمسة الأولى من تاريخ الإسلام ، وهم الذين يتميز إنتاجهم – بالإضافة إلى أسبقيتهم الزمنية– بقدر كبير من الجدة والابتكار ، والجرأة العلمية فى تناول المشكلات ، ومحاولة إيجاد الحلول الأصيلة لها .

أما المتأخرون ، فهم الذين جاءوا بعد القرن الخامس الهجرى ، ليقوموا بعملية التصنيف والشرح والتعليق والاختصار .. الخ ، ولا نكاد نعثر– إلا نادرا – على لمحة إبداع أو مبادرة جديدة [2].

ولا شك أن ظهور المطبعة سواء فى الغرب أو الشرق ، ثم فى البلاد العربية ، يفصل بين عصرين متمايزين: العصر القديم الذى كان يتم فيه نشر الكتب

فى صورة مخطوطات منسوخة باليد ، ومتداولة بالتالى فى نطاق محدود ، لا يتجاوز العشرات . أما العصر الحديث فهو الذى انتشرت فيه طباعة الكتب ، وبأعداد كبيرة ، (يبلغ الآلاف، وأحيانا الملايين).

وسوف يكون من الطبيعى أن يبدأ المستشرقون فى الغرب – بعد أن انتشرت المطابع ابتداء من سنة 1500 م –[3] وراحت تنشر العديد من المؤلفات العربية على أساس المنهج الذى تم اتباعه فى نشر المؤلفات اللاتينية والإغريقية القديمة . وهذا المنهج يقوم على جمع أكبر عدد ممكن من نسخ الكتاب المخطوطة ، والمقابلة بينها، وتسجيل فروقها ، ثم التقديم لها ببيان وثاقة الكتاب إلى مؤلفه ، وعرض سيرة حياته ، ومؤلفاته، وعصره ، والانتهاء بوضع عدد من الفهارس الكاشفة التى تسهل الانتفاع السريع من المادة العلمية فى الكتاب . وهذا العمل هو الذى يطلق عليه باللغات الأجنبية "النشر العلمى ، أو النقدى " edition Critique بالفرنسية و Critical edition بالإنجليزية ، ويقابله مصطلح "التحقيق " فى اللغة العربية .

والواقع أن تحقيق التراث بهذا المفهوم قد بدأ أولاً فى تركيا ، التى ظهرت بها المطبعة العربية أولا ، ثم فى كل من لبنان ، وسوريا ، ولكن البداية الحقيقية كانت فى مصر ، وابتداء من عشرينيات القرن التاسع عشر ،

وبالتوازى مع حركة البعثات إلى الغرب .. فقد عاد المبعوثون المصريون بعد أن شاهدوا نهضة الغرب العلمية ، والحضارية ، ولديهم شعور قوى بضرورة النهضة عن طريقين :

الأول : إحياء التراث العربى – الإسلامى ،

والثانى : ترجمة المعارف الحديثة إلى اللغة العربية .

وكانت المطبعة العربية التى تركها نابليون فى مصر ، هى النواة التى تم بها طبع عدد كبير من روائع التراث العربى والإسلامى . ويكفى أن نشير هنا إلى أن الفترة التى تنتهى بعام (1295 هـ – 1878م) قد أخرجت مطبعة بولاق وحدها ما يزيد على نصف مليون نسخة ، ويلاحظ هنا أننا نتحدث عن نسخ مؤلفات قد يصل عدد أجزاء الواحد منها إلى عشرين جزءا ، وأحيانا ما كان يتم طبع كتاب واحد وعلى هوامشه كتاب (آخر) أو أكثر من كتاب [4].

وفى البداية كان همّ الناشرين هو إخراج الكتاب من حالته المخطوطة القديمة إلى الحالة المطبوعة الحديثة . ومع مرور الوقت ، بدأ المنهج الغربى فى نشر الكتب يسود ، وساعد على ذلك تزايد الصلات العلمية مع الغرب ، عن طريق البعثات من ناحية ، وعن طريق الجامعات المصرية العربية الحديثة من ناحية أخرى . .

ولم نكد ندخل إلى القرن العشرين ، حتى أصبح لدينا عدد من كبار المحققين للكتب العربية القديمة بأسلوب علمى دقيق ، يضارع ، بل يفوق أحيانا ما قام به المستشرقون فى هذا المجال [5].

وقد تطورت عملية تحقيق الكتب فى مصر والبلاد العربية تطورا واضحا خلال النصف الأول من القرن العشرين ، وأصبحت تمثل فنا قائما بذاته ، يمكن أن يكرّس له عالم واحد حياته كلها ، بل إن الأمر قد تطور إلى تخصص عالم واحد فى مجال واحد من كتب التراث ، فأصبح لدينا محققون فى الأدب ، أو اللغة ، أو الشريعة أو تاريخ العلوم ...الخ.

وداخل مجال التحقيق ظهرت اتجاهات أو أساليب متنوعة . فبعض المحققين العرب يتبع الأسلوب الغربى - تماما- فى تحرى الدقة الكاملة ، عندما يسجل فروق النسخ ، فنجده يهتم بالإشارة إلى الحرف المنقوط أو المعجم بدون نقط . ولأن المستشرقين لم يكونوا على دراية كاملة وعميقة باتساع أساليب اللغة العربية ، فقد كانوا حريصين على تسجيل أدق الفروق حتى لا يتهموا بعدم الأمانة . أما إخواننا العرب فقد تابعوا هذا الأسلوب إلى حد قد يثير الغيظ أحيانا ، فمثلا نجدهم يسجلون الفرق فى النسخ بين (صلوات الله وسلامه عليه) أو (صلى الله عليه وسلم) وأحيانا يسجلون كلمة (تعالى)

مشيرين إلى ورودها هكذا بدون نقط على أنها فرق بين النسخ يستحق التسجيل [6].

وتنوعت أيضا مناهج المحققين العرب ، فبعضهم يكتفى بتقديم النص للقارئ دون تدخل منه ، وبعضهم يزوده بكل ما أمكنه من ثقافته الخاصة، مثقلا إياه بالهوامش والتعليقات . وكما التزم البعض بوضع هامش لفروق النسخ والتعليقات الخفيفة ، تفنن البعض الآخر فى وضع ثلاثة هوامش أسفل النص الأصلى أحدها لفروق النسخ اللفظية، والإملائية ، والثانى لتخريج الآيات ، والأحاديث ، والنقول لأصحابها ، والثالث لمزيد من البيان عن طريق المقارنات .

وقد ظهر فى الآونة الأخيرة نوعان من تسجيل فروق النسخ : الأول واضح فى دلالته إلى الكلمة الزائدة، أو الناقصة ، أو المختلفة بلفظة صريحة فى ذلك. والنوع الآخر [7] يستخدم رمزا جبريا يشير إلى الفرق بين النسخ بالعلامة] وللزيادة بالعلامة < > وللنقصان بالعلامة [ ] . وهكذا .

وقد استطاعت المطابع الأميرية أن تساير هذه المناهج والأساليب ، وتفننت فى ذلك إلى حد كبير . ومع أن الكتب المطبوعة فى المطبعة الأميرية ما زالت تحتل مكان الصدارة ، وتحتوى على قيمة تاريخية ، وفنية كبيرة، فإن مؤسسة مثل دار المعارف فى مصر قد

أحرزت هى الأخرى تقدما ملحوظا فى هذا المجال ، وإن كانت تأتى فى مرتبة تالية .

وخلال الستينيات ، كان قد بدأ فى القاهرة لون جديد ، يمكن أن نطلق عليه (نقد التحقيق) أى متابعة الكتب المحققة بعملية فحص نقدى ، وتقويم علمى لها ، إلا أن هذا اللون ما لبث مع الأسف أن توقف سريعا ، نظرا لما أحدثه من غضب فى أوساط المحققين ، الذين يسوؤهم دائما أن يتعرض أحد لعملهم بأى نقد أو تجريح(8).

وما تزال بعض المجلات العربية تفرد فى جزء محدود منها مساحة للإشارة إلى ما تم تحقيقه من كتب التراث ، ولكنها تخلو فى الغالب من أصول النقد العلمى الصحيح ، وتكاد تقتصر على التنويه ، أو الإشارة (فقط) بالذى قام بالعمل.

ولكن الأمر الذى يستحق التنويه هو ما تم فى داخل دور الكتب المصرية ، والعربية من عملية فهرسة تفصيلية لما يوجد بها من مخطوطات . وقد ساعدت هذه الفهرسة الكثير من الباحثين على التعرف السريع على محتويات هذه المكتبات ، والتنبه لأهمية ما يستحق التحقيق منها .

وكان إنشاء معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، فرصة جيدة لدفع هذه العملية (عملية تحقيق

التراث) فى العالم العربى بصورة واسعة . وقد استطاع المعهد أن يجمع بعض المخطوطات فى هيئة "ميكروفيلم" من دور الكتب العربية ، والتركية ، ووضع لها فهرسا تفصيليا جيدا ، مازال يفيد بعض الباحثين .

ومن أهم ما ينبغى أن نشير إليه فى مجال تحقيق التراث ، أن أعلام الحضارة العربية والإسلامية ، قد تم طبع أعداد كبيرة من مؤلفاتهم ، خلال الفترة الماضية . صحيح أننا لم نحصل - حتى الآن - على ()مجموعة المؤلفات الكاملة) لأحد أعلامنا السابقين ، ولكننا أصبحنا على معرفة بأهم أعماله ، أو بعضها على الأقل ، ولا شك أن ما لم نحصل عليه بعد قد يرجع إما إلى ضياعه بالفعل ، أو إلى وجوده فى مكان لم نصل إليه حتى الآن .

وهنا لابد من الإشارة إلى التقصير الواضح فى عدم الاستفادة من المعاهدات الثقافية مع الدول التى تمتلك رصيدا هائلا من مخطوطاتنا العربية والإسلامية ، وفى مقدمتها : أسبانيا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وهولندا ، والاتحاد السوفيتى سابقا [9]، وتركيا ، وألمانيا .. وليس المطلوب من هذه الدول إلا أن تزودنا بصور "ميكروفيلم" من المخطوطات الموجودة لديها ، لكننا من ناحية أخرى مطالبون بإنشاء مؤسسة عربية ذات فروع إقليمية ، تنهض لجمع هذه المصوّرات ، وتقدم التعريف المناسب

لها ، وتزود الباحثين بما يريدونه منها . ولا شك أن التطور الهائل الذى لحق بعمليات التصوير والتكبير يساعد على تسهيل هذه المهمة ، التى لا ينقصها إلا الرغبة الصادقة ، والإرادة ، وجودة التخطيط والتنفيذ .

وهنا نصل إلى من يقوم بالعمل فى الوقت الحاضر . من المعروف أن الجيل العظيم من المحققين العرب الكبار ، قد اختفى من حياتنا بعد أن ترك أثرا لا يمحى . ومن المعروف أيضا أن هذا الجيل لم يترك من التلاميذ عددا كافيا ، من ناحية ، ولا كفاءات مدربة تدريبا جيدا من ناحية أخرى : ولذلك فإننا بحاجة ماسة إلى تدريب جيل جديد من المحققين ، وتزويدهم بالمعرفة الأساسية فى هذا المجال ، وبالدربة والمران على أبجديات هذا العمل الشاق ، ابتداء من تمييز الخطوط المشرقية والمغربية ، ودراسة أنواع المخطوطات لمعرفة الأصيل من الزائف فيها ، وتحديد زمان كتابتها، والوقوف على أساليب المؤلفين العرب والمسلمين فى الكتابة ، والإملاء ، والإجازة ، والإقراء ، والتحديث ، والإخبار ، والإنباء .. الخ ، وأفضل المناهج للمقابلة بين النسخ المختلفة ، وكيفية تخريج الآيات ، والأحاديث ، وتخريج النقول ، والأشعار ، وبيان الأماكن ، والترجمة للأعلام ، وتحديد المصطلحات الفنية ، وكيفية عمل الفهارس

المتنوعة ، وبالجملة : إتقان تقديم النص القديم للقارئ المعاصر بحيث يسهل عليه الاستفادة منه .

إننى أطالب هنا بجعل هذا المجال تخصصا قائما بذاته ، ينبغى أداؤه فى إطار الجامعات العربية ، بحيث توضع له المناهج الدراسية اللازمة ، ويقوم على تدريسه والتدريب عليه ، عدد من كبار الأساتذة فى هذا الفن ، وتخصيص درجة جامعية كاملة له . بل وفتح الطريق أمام النابهين من الطلاب ، للحصول فيه على درجتى الماجستير والدكتوراه ؛ وبهذا يتكون لنا – مع مرور الوقت – جيل نحن فى أشد الحاجة إليه لاستمرار إحياء التراث العربى ، الذى يمكن القول – باطمئنان – إن أكثره لم ينشر بعد ، بل إن ما نشر منه لا يتعدى 1: 10 [10].

وعلى الرغم من أهمية هذا المجال ، أو المحور الأساسى الذى تقوم عليه نهضتنا الحاضرة – فإن القائمين على أمر الجوائز العربية يكادون يهملونه تماما ويقصرون هذه الجوائز على (التأليف) ، وأحيانا يضيفون إليه (الترجمة) . وهذان محوران هامان كذلك ، ولكن (تحقيق التراث) هو الآخر لا يقل عنهما أهمية ، إن لم يكن – فى الحقيقة – هو الأساس الذى يدور المحوران الآخران حوله .

وكما يحتاج تحقيق التراث إلى مطابع متخصصة ، فإنه يتطلب أيضا ناشرين متخصصين . وإننى أتطلع

إلى اليوم الذى يتخصص ناشر مصرى أو عربى فى نشر التراث اللغوى والأدبى ، وناشر فى التراث الفقهى والأصولى ، وناشر فى التراث الفكرى والفلسفى ، وناشر فى التراث العلمى ، وناشر فى علوم القرآن والسنة .. الخ [11].

ومن المعروف أن هذا التخصص على مستوى الناشرين سوف يدفع عملية التحقيق خطوات إلى الأمام كما أنه سوف يضع الركائز الأساسية لهذا العمل ، بحيث يصبح الناشر المتخصص مرجعا فى مجاله ، يتوافد عليه الباحثون والقراء من كل أنحاء العالم للاستفادة منه ، وإفادته فى نفس الوقت .

تبسيط التراث :

إن التراث العربى والإسلامى كتب ، فى معظمه ، للكبار ، بل يمكن القول إنه كتب للمتخصصين منهم . والمطلوب فى الوقت الحاضر أن نقوم بعملية تبسيطه ، لكل المستويات الثقافية ، ابتداء من الصغار ، ومرورا بمتوسطى الثقافة ، وانتهاء بالمتخصصين .

وهكذا تصبح الحاجة ماسة إلى تقديم التراث العربى فى ثلاثة أشكال متدرجة .. تبدأ بالطبع من الشكل

المتخصص الذى يحافظ بكل أمانة على النص القديم ، مع ضرورة التعريف به ، ووضع الفهارس التحليلية له .

أما المستوى الثانى ، فيمكن أن يتخلص من الجوانب التفصيلية ، ويكتفى بتقديم النص فى صورة مبسطة ، مصحوبة بالشرح والتفسير ، ومشفوعة بالعناوين الفرعية ، الذى تشد انتباه القارئ ، وتساعده على الاستفادة منه ، ولا مانع من استبعاد جزء أو أجزاء من النص ، قد لا تكون الحاجة إليها ضرورية .

والخلاصة أننا نتدخل فى هذا المستوى بالصورة التى نقرب بها النص التراثى القديم إلى القارئ العادى ، مع تنبيهه دائما إلى أن هذا الشكل ليس إلا صورة معدلة ومبسطة للنص الأصلى [12].

وأما المستوى الثالث الخاص بالصغار ، فهو ما ينبغى أن نقوم فيه بعملية إعادة صياغة كاملة للنصوص القديمة مع الحفاظ – بالطبع – على جوهرها ، وروحها .. وهنا لابد من القيام قبل ذلك بعملية اختيار دقيقة ، وهادفة لما يمكن أن يقدم للنشئ من عناصر تراثية ، تساعده على الاتصال بماضيه الثقافى والحضارى .

إن ما أدعو إليه هنا ليس جديدا تماما فمثله قد تم – وما زال يتم– فى الغرب بالنسبة للتراث الإغريقى والأعمال الأدبية والفكرية القديمة . وقد تمت لدينا بعض المحاولات المماثلة بالنسبة لأعمال من مثل (ألف ليلة

وليلة) و (كليلة ودمنة) ، ولكن الأمر يتطلب اتساعا فى الرؤية وشمولا فى الاختيار [13].

بهذا العمل الهام ، يمكن أن نسهم فى إشاعة التراث العربى والإسلامى ، وترويجه بين أكبر عدد من الناس ؛ لأن مجرد طبع المخطوطات القديمة ، وإخراجها فى مجلدات حديثة ، وأنيقة ، دون إيصالها مباشرة إلى عقول الناس ، يظل عملا مغلقا ، وعقيما ، ولا يخرج عما أطلق عليه مصطلح (تكديس التراث) ، وهنا نصل إلى مرحلة هامة من مراحل إحياء التراث ، وهى : قراءة التراث .

قراءة التراث (منهج مقترح):

لا أقصد بقراءة التراث إمرار العين عليه ، أو تلاوته بصوت مسموع أو مهموس، وإنما المقصود إعادة إنتاجه ؛ وذلك عن طريق تحليل مكوناته ، وفحص عناصره ، فى ضوء ما وصل إليه تقدم العلوم ، والمعارف فى عصرنا الحاضر .

إن التراث ليس إلا أثرا فكريا تاريخيا يكمل الآثار المادية التى وصلت إلينا متمثلة فى المساجد ، والمداس والأسلحة ، والملابس .. الخ ، وكما أن بعض هذه الآثار قد تهدم فينبغى علينا ترميمه ، وكما أن بعضها مازال

متماسكا ومحتفظا بفائدته وجماله ، فينبغى ألا نحجم عن الإفادة منه .

إن كل ما فى التركة لا يستحق التوزيع . ومن هنا فلا ضير على الإطلاق من تجاوز ما نجده فى التراث من معرفة ثبت نقيضها ، أو معلومات تحقق لدينا خطؤها .. ولا يعنى هذا المطالبة ، بإلغائها ، وإنما يحسن الإبقاء عليها فى وضعها التاريخى كتعبير عن واقع محلى ، أو فترة زمنية معينة دون محاولة بعثها ، أو شغل الأذهان بإثارتها من جديد (14).

ولكن التراث الإسلامى يحتوى على الكثير، النافع والمفيد . وهنا لابد من التركيز عليه ، وبيان قيمته التاريخية والإنسانية ، مع محاولة وصله بما سبقه من فكر مشابه أو مناقض ، وما تم إنجازه بعد ذلك مما يرتبط به .

وسوف أقدم فيما يلى منهجا محددا لقراءة التراث العربى ، يصلح أن يطبق على نصوصه المختلفة ، ويعبر فى نفس الوقت عما أقصده بإعادة إنتاج هذه النصوص من خلال القراءة المعاصرة .

يتم تطبيق المنهج على أربع مستويات هى : المستوى التعبيرى والمستوى التاريخى ، والمستوى النفسى والاجتماعى ، والمستوى المنطقى والفلسفى :

1- المستوى التعبيرى:

ويشمل التحليل اللغوى للنص، ويبدأ هذه التحليل من الوقوف على دلالة الألفاظ والعبارات ، وعلاقة المفردات فى الجمل ، ونظام الجمل داخل الفقرات ، وبيان السياق الخاص والعام للنص ، مع الكشف عما يحتوى عليه من خصائص الدقة ، والوضوح ، وجمال التعبير ، وحسن الأداء ..

ومن حسن الحظ أن لدينا هنا مجموعة علوم لغوية ، وبلاغية قديمة تساعدنا على إجراء هذا التحليل كما أن النقد الأدبى الحديث بإمكانه أن يزودنا بأداة صالحة لتقييم النصوص القديمة ، وإلقاء الضوء على بعض الجوانب التى لا تصل إليها علوم اللغة والبلاغة القديمة وحدها .

2- المستوى التاريخى:

وهنا لابد من تحديد المكانة التاريخية لصاحب النص ، ثم للنص فى إنتاج المؤلف ، وبيان مدى أهميته فى بيئته التى تم إنتاجه فيها ، وكذلك تأثيره فى عصره عن طريق رصد ردود الأفعال التى أحدثها حينئذ ، ثم تتبع قدرة النص على الاستمرار بعد ذلك ، عن طريق الشروح والحواشى ، والتعليقات ، والأرجوزات ، وكذلك عن طريق الهجوم على النص ، ومعارضته ، وتفنيد أفكاره.

3- المستوى النفسى والاجتماعى:

وفى هذا المستوى يجرى الكشف عما يوجد فى النص من عوامل سيكولوجية ، قد تبدو من خلال حديث المؤلف عن نفسه ، أو عن معاصريه ، وكذلك بيان الاتجاهات الاجتماعية التى كان يرمى المؤلف إلى تأييدها أو رفضها .

ولا شك أن هذا المستوى يعتمد على إلمام كاف بعلمى النفس والاجتماع الحديثين ، وكلاهما يتضمن الكثير من المفاتيح التى يمكن التعامل بها مع النصوص القديمة والاقتراب الحميم منها بعد طرح الرهبة التى تفصلنا عنها ، أو الشعور بالنقص الذى يشعرنا بغضاضة نحوها .

4- المستوى المنطقى والفلسفى :

وهنا يتم بيان الهيكل البنائى للنص ، والكشف عن تسلسل أفكاره ، وقيمة براهينه ونتائجه . ثم الانتقال من ذلك إلى تحديد قيمة النص من الناحية الفكرية فى عصره ، ومدى اسهامه فى التصور الإنسانى الشامل .

وهكذا نرى أن هذا المنهج المركب والمتدرج لقراءة النصوص التراثية القديمة يمكنه أن يساعد على إعادة إنتاج هذه النصوص فى صورة جديدة ، ومعاصرة ، ومن الواضح أنه سوف يستخرج منها رؤى وأشكالا غير

تقليدية ، بل إنه سوف يسهم فى تحديثها ونقلها إلى دائرة العصر الحاضر .

الهدف من إحياء التراث : يظل تحقيق المخطوطات ، ثم قراءتها بهذا المنهج المقترح عملاً تجريديا خالصاً لا يؤثر فى الواقع ، ولا يتفاعل معه إلا إذا تمت الاستفادة المنشودة منه ، وذلك عن طريق استخلاص ما فيه من تجارب وحقائق ومناهج أو أساليب وتطبيقها فى حياة الناس الحاضرة . وقد نفاجأ فى هذه المرحلة بقلة العائد . ولا ينبغى أن يحبطنا ذلك ، فإن الأهم هو إيجاد الصلة بين الماضى والحاضر ، وتوجيه الأذهان إلى طرق ومناهج من التفكير لدى الأسلاف وإيجاد نوع من المرجعية الثقافية يمكن أن يعتمد عليها الجيل الحالى عندما يفاجأ بمن يهاجمه ، أو ينتقص من ماضيه الحضارى .

والخلاصة أن إحياء التراث مهمة قومية ، لا تقتصر على أفراد أو جهات منفصلة ، وإنما ينبغى أن تقوم بها الأمة كلها ، وأن تشرف الدولة عليها إشرافا مباشرا. وهى – على غير الشائع – تتكون من مراحل :

1- جمع التراث وتصنيفه .
2- تحقيقه تحقيقا علميا أمينا ، ونشره فى صورة تليق به .
3- تبسيطه فى مستويات ثلاثة : للمتخصصين ، والقراء بعامة ، والأطفال .
4- قراءته تبعا للمنهج الذى اقترحناه ، بقصد الإفادة مما أمكن من عناصره .

(ب) تراثنا المخطوط وكيف نستفيد منه ؟

لابد أن نحدد أولا ما ما هو المقصود بـ "التراث" ؟ ومن الممكن أن نتفق على أنه يعنى التركة التى خلفها لنا الأجداد ، متمثلة فى أربعة مجالات رئيسية هى :

أ- الآثار المادية كالمساجد والقلاع والقصوروالمداس والأسبلة ..

ب- المؤلفات العلمية والأدبية .

جـ- العادات والتقاليد الاجتماعية .

د- الرصيد النفسى المحّل بالكثير من القيم والمبادئ التى تتحكم فى نظرتنا إلى الناس والأشياء .

لكننا سوف نقصر حديثنا هنا على التراث العلمى والأدبى الوارد إلينا مكتوبا باللغة العربية فى هيئة مخطوطات .

ولكى نحدد هذا المجال على نحو أدق فلابد من قصره على كل ما سوى القرآن الكريم والسنة النبوية ، باعتبار الأول هو الكتاب المنزل من السماء ، والثانية هى بيان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، له . وكلاهما داخل فى دائرة الوحى الأعلى من مستوى البشر .

أما ما جاء من خارج هذه الدائرة فهو نتاج بشرى خالص ، يتراوح أحيانا بين الدقة والغموض ، ويتفاوت فى أحيان أخرى بين الصواب والخطأ ، وهو يعبّر فى كل

عصر وجيل عن وجهات نظر مرتبطة بجو ثقافى معين ، وبيئة اجتماعية خاصة .

والتراث الإسلامى يبدأ من كل ما أنتجه المسلمون فى عصر الخلفاء الراشدين ، وخلال العهد الأموى ، والعباسى ثم العثمانى مضافا إليه ماخلفته فترة الازدهار الأندلسية ، والدولة الفاطمية ، ودويلات الانفصال التى تعاقبت على جسد الدولة – الأم: كالطولونية، والإخشيدية والطاهرية والحمدانية والبويهية ...الخ.

والملاحظ أن هذا التراث العلمى والأدبى لم يطبع ، كما لم يحقق منه إلا الجزء الأقل فى حين أن مخطوطاته مازالت ترقد لدينا ، كما فى معظم مكتبات العالم ، بعد أن تم نزْحها خلال فترة طويلة من رقاد العقل العربى ، وعدم معرفته بقيمة ما تركه الأسلاف.

لذلك فإننا عندما نتحدث عن التراث العربى الإسلامى ، علينا أن نتحلى بالكثير من الحذر والحيطة – وأيضا التواضع – فى إصدار الأحكام العامة ، نظرا لأن ما لدينا من الوثائق لا يكفى أبدا لتزويد أى حكم عام بالمصداقية اللازمة . وبالتالى فإننا من الممكن أن نقول باطمئنان إن كل ما صدر من أحكام عن هذا التراث لا يخرج عن دائرة الأحكام النسبية ، أو الفروض التى لا ترقى إلى مرتبة القانون الذى يصلح للتطبيق على كل الحالات.

من هذه المقدمات الضرورية ، يمكن الانتقال إلى الموضوع الرئيسى ، وهو كيفية الاستفادة من التراث . ولكى تخرج الإجابة بصورة منطقية من مقدماتها الطبيعية، لابد من إلقاء نظرة تحليلية على هذا التراث .

التراث العربى – الإسلامى يمكن تصنيفه عموما فى ثلاث دوائر كبيرى ، هى : الدائرة اللغوية ، والدائرة الدينية والتاريخية ، والدائرة العلمية .

أ- الدائرة اللغوية والأدبية:

تشمل كل ما يتعلق بالجانب التعبيرى بدءا من المستوى المعجمى والدلالى ، ومرورا بمستوى الصحة اللغوية (علم الصرف وعلم النحو) وانتهاء بالمستوى البلاغى ، وما ينتج عن ذلك من جوانب أدبية خالصة (تشمل الشعر والنثر) أو نقدية تحتوى على مقاييس الحسن والقبح فى كل منهما .

ب- الدائرة الدينية والتاريخية :

وتحتوى على كل ما يتعلق بدراسات القرآن الكريم والسنة النبوية ، وما نتج عن بحثهما من علوم ومعارف وتضم علم القراءات ، والتفسير ، وعلوم الحديث ، وعلم الفقه ، وعلم أصول الفقه ، وعلم أصول الدين (أو الكلام) وما يتبعه من آداب البحث والمناظرة . ويرتبط

بهذه الدائرة علما التصوف والأخلاق ، ولا تكتمل إلا بالتاريخ الذى يمثل الخلفية التى تفسر معظم الظواهر التى نشأت وتطورت داخل هذه العلوم والمعارف.

جـ- الدائرة العلمية :

وتحتوى على مجموعة العلوم الرياضية والتجريبية التى استوردها أسلافنا من الحضارات السابقة وأسهموا بنصيب وافر فى الحفاظ عليها وتطوير الكثير من عناصرها ، ومن ذلك علم الطب ، والصيدلة ، والنبات ، والحيوان ، والفلك ، والملاحة ، والطبيعة ، والكيمياء ، ثم الرياضيات من حساب وجبر وهندسة ، وما ينتج عنها من تطبيقات فيما أطلقوا عليه علم الحيل (الميكانيكا) والموسيقى.

تلك هى الدوائر الثلاث التى يمكن أن ينتظم فيها التراث العربى – الإسلامى . ومن الواضح أن وضعها بهذا الشكل سوف يتقدم بنا خطوة إلى الأمام من أجل الوصول إلى إجابة سؤالنا : كيف نستفيد من التراث ؟

وفى البداية يمكن ملاحظة أن بعض علوم التراث تعتبر نتاجا عربيا وإسلاميا خالصا ، بينما يعتبر بعضها الآخر نتاجا وافدا من الأمم والحضارات الأخرى . ومن

المعروف أن أى مجتمع لا يخترع علما ، أو يلجأ إلى استيراد علم إلا عندما تكون لديه حاجة ملحة لذلك . وهذا يثبت أن المجتمعات الإسلامية السابقة قد واجهت مشكلاتها بمجموعة هذه العلوم ، كما أنه يفسر فى نفس الوقت مدى ازدهار بعض العلوم أو أغلبيتها بالنسبة إلى بعض العلوم الأخرى .

فمثلا نجد أن الإنتاج الأدبى يفوق إلى حد كبير الإنتاج العلمى ، كما أن كلا من علم الفقه وعلم الكلام والتصوف أغزر مادة من علوم النبات والفلك والكيمياء. إن زيادة حجم المؤلفات فى مجال معين لا شك أنه يعكس اهتماما خاصا من المجتمع ، وهذا يؤدى عادة إلى رواجها وازدياد نشاط المؤلفين فيها .

إن نفس الشئ يحدث اليوم فى حياتنا المعاصرة . وإذا كنا قد توقفنا عن اختراع علوم جديدة ، نتيجة لعوامل كثيرة لا يصعب تحديدها ، فإننا نقوم باستيراد ما تم إنتاجه فى العالم من علوم . وحاجتنا هى التى تحدد مدى الإقبال على هذه العلوم ، وبالتالى مدى رواجها وانتشارها (لاحظ الاهتمام الحالى بعلوم الاتصال ، والإعلام ، والحاسب الآلى) .

لكننا فى نفس الوقت مازلنا نحتفظ ببعض علوم التراث بنفس درجة أهميتها وانتشارها ، ومن ذلك مثلا

علم اللغة والأدب والفقه والكلام . وهذا هو ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح : استمرارية التراث .

وهذا يعنى أننا لابد أن نسير فى خطين متوازيين هما : الاستيراد والاستمرارية . والاستيراد يعنى متابعة ما يستجد فى العالم من علوم ، تساعدنا على حل مشكلاتنا الجديدة ، أما الاستمرارية فتعنى المحافظة على علومنا التراثية مادامت تلبى حاجة حقيقية فى حياتنا المعاصرة .

وهنا لابد من بعض التفصيل . فإننا نحتاج إلى الاشتغال بعلم من العلوم لأن لدينا مجموعة من المشكلات التى يهدف هذا العلم إلى حلها . وذلك هو المقياس الذى ينبغى أن يحدد استيراد أو استمرارية أى علم من العلوم ، سواء اكن هذا العلم من علوم التراث ، أو من العلوم الوافدة .

وإذا سلمنا بهذا المقياس ، أصبح من السهل علينا استعراض علوم التراث واحدا واحدا لمعرفة مدى ما نحتاج إليه . وقبل هذه المواجهة الضرورية لابد من التنبيه إلى أن الاستغناء عن علم من علوم التراث لا يعنى اهماله تماما أو إقصاءه خارج منظومتنا التراثية ، وإنما المقصود من ذلك هو حفظه فى صورته التاريخية كأثر لنشاط ذهنى يستحق أن يكون موضوعاً لعلم خاص يطلق على اسم تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين .

وسوف أقتصر هنا على بعض الأمثلة التى أرجو أن تكون ذات دلالة كافية على ما أقصد الوصول إليه . وأبدأ بمثال من علم النحو الذى وضعه العرب لحفظ اللسان من الخطأ فى التعبير . إن هذا العلم المتكامل الذى بذل فيه أجدادنا جهدا رائعا يتمثل فى تحليل الجملة العربية إلى أبسط مكوناتها ، وفى دراسة كل مكوّن منها على حدة ، ثم فى اتصال بعضها ببعض ، وإصدار الأحكام التى تضبط هذه الفروع المتناثرة مع تعليل كل حكم بحيث تصبح له حكمة .. إنه بناء عقلى فى غاية الدقة والاكتمال .

لكننا إذا تفحصنا جيدا التراث النحوى وجدناه يشتمل علىٍ مجموعة محددة جدا من قواعد اللغة ، وحشدا هائلاً من فلسفة هذه القواعد ، ووجهات النظر المختفة بل المتضاربة حولها . ومن المدهش حقا أن يكون لكل صاحب رأى حجته القوية ، بل الأكثر ادهاشا أن تتساوى هذه الحجج ، فى بعض الأحيان ، بحيث يصعب على الباحثين الميل إلى واحدة منهما دون الأخرى (انظر مثلا موضوع اسم الفاعل وتردد الباحثين فيه بين اعتباره اسما أو فعلا، وكذلك موضوع المصدر والفعل : أيهما أصل الآخر ؟).

وهكذا فإن التراث النحوى يشتمل على جانب كبير من تاريخه ، وفلسفته ، وصراع المدارس حوله . ونحن

الآن – على ما أحسب – فى غنى عن كل ذلك ، والذى نحتاج إليه فقط هو معرفة مجموعة القواعد الأساسية وكيفية تطبيقاتها على اللغة ، حتى تستقيم عبارتنا المكتوبة والمقروءة ، ونتمكن فى نفس الوقت من نطق اللغة العربية نطقا صحيحا يؤدى إلى فهمها فهما صحيحا .

هذا هو مفهوم الاستمرارية ، أى استخراج ما يفيدنا من كل علم من علوم التراث فى حياتنا المعاصرة ، مع الاحتفاظ بأجزائه الأخرى للدرس التاريخى ، الذى يمكن أن يتخصص فيه عدد محدود من الباحثين المتعمقين ، وهؤلاء قد نلجأ إليهم أحيانا لاستيضاح مسألة غامضة ، أو معرفة تعليل حكم ما .

ومثال ثان من دائرة العلوم الدينية وهو علم القراءات ، الذى يعد علماً أساسيا يعلمنا كيفية الأداء الصحيح للقرآن الكريم ، مطابقا لما كان ينطقه به الرسول (صلى الله عليه وسلم) . لقد وصلتنا سبع قراءات أو عشر . وكل قراءة منسوبة إلى أحد الصحابة، رضى الله عنهم ، وموصوفة وصفا صوتيا دقيقا ، لا نعثر على مثيل له فى تاريخ أى كتاب سماوى آخر . وبالطبع هناك خلافات فيما بينها من حيث الوقف والوصل ، والترقيق والتفخيم ، والإمالة والإطالة .. الخ . وإذا كان التقدم التكنولوجى فى عصرنا الحاضر قد وضع بين

أيدينا إمكانية التسجيلات الصوتية الواسعة الانتشار ، فمن الممكن أن نقوم بتسجيل كل قراءة من القراءات السبع أو العشر تبعا لوصفها الوارد فى كتب القراءات ، ونشرها بين الناس على هذا النحو ، مع التقديم لها بنبذة عن القيمة التوثيقية لكل منها .

إننا هنا أمام وسيلة أخرى للإفادة من أحد العلوم الدينية عن طريق استخدام التكنولوجيا الحديثة ، دون أن نهمل كم المؤلفات التى وضعت فى هذا المجال . وبهذا الشكل نكون قد وضعنا نتائج العلم موضع التطبيق العملى . ولا شك أن هذا كان هو الهدف الأساسى منه ، ولكنه غاب فى زحام كتب الشرح والخلاف التى كثرت فيه وفى مجال علوم الحديث . لدينا علم الجرح والتعديل ، الذى يرصد أحوال الرواة بهدف الكشف عن صحة الأحاديث أو ضعفها ، ونحن نواجه فى هذا الصدد بمؤلفات ضخمة ومتعددة ، وبآلاف الأسماء التى تستعصى على الحصر ، وتشتت بالتالى جهود الباحثين أنفسهم . ولكن الكمبيوتر وإمكانياته الهائلة يمكنه أن يستوعب هذه الأسماء بسهولة ، وأن يساعدنا على تصنيفها ، وسرعة استحضارها موفّرا بذلك أداة للتعرف عليها، وبالتالى يسهل علينا معرفة حكم الحديث من حال رواته .

أما علم مصطلح الحديث ، فمن الممكن أن نستفيد فى تطويره من أحدث نظريات علم اللغة الحديث ، والتى أصبحت تطبق بنجاح على الأعمال الأدبية وتأتى بنتائج طيبة. ومن ذلك أسلوب "البصمة اللغوية" الذى يقوم على أن لكل إنسان بصمة خاصة فى التعبير ، يمكن تجميعها من استخداماته المتنوعة للغة ، ومن لوازمه التى يكررها ، وألفاظه التى يحرص على استخدامها ، وعباراته التى يكثر من ترددها . ولا شك أن دراسة لغوية فاحصة للأحاديث النبوية يمكن أن تقدم لنا (بصمة لغوية) خاصة، تساعدنا فى التعرف على الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الموضوعة ، وذلك بالطبع إلى جانب ما وضعه أسلافنا فى علم مصطلح الحديث من مقاييس . وبهذا الأسلوب يمكننا أن نحرك السكون فى علوم من التراث ، لم تعد تحظى بأى قدر من التطوير ، مما أدى إلى اهمالها ، مع أن الحاجة إليها شديدة ، وستظل كذلك ، لأنها تتعلق - فى حالتنا تلك - بالمصدر الثانى للإسلام ، وهو السنة النبوية .

ولا يسعنى أن أترك دائرة العلوم الدينية دون أن أتوقف قليلا عند علم أصول الدين ، أو ما أطلق عليه اسم علم الكلام . إن النشأة الأولى لهذا العلم تبين أن من أهم أهدافه : الدفاع عن عقيدة الإسلام بالأدلة العقلية التى استخدم مثلها الخصوم ، ثم ما لبث أن

انقلب الخلاف فى هذا العلم بين طوائف المسلمين أنفسهم . وهنا مؤلفات كثيرة جدا تفوق الحصر . وينبغى ألا تحجبنا كثرتها الساحقة عما يمكننا أن نستفيده منها وهو جلاء العقيدة الإسلامية البسيطة بأسلوب عقلى يقنع غير المسلمين ، كما يؤكدها فى نفوس المسلمين أنفسهم . وكلا الأمرين يظل هدفا مطلوبا على مر العصور . ولعلنا اليوم فى أمس الحاجة إلى هذا العمل ، ولكننا لم نعد بحاجة إلى استحضار ذلك الصراع التاريخى القديم بين الفرق الإسلامية ، وهو ما ينبغى أن يظل تاريخا ، أو بعبارة أدق : محفوظا فى مكانه المناسب من التاريخ .

إن هذا يقودنى إلى إبراز فكرة لعلها اتضحت الآن وهى أنه فى داخل كل علم تراثى ينبغى التمييز بين جانبه التاريخى ، وبين ما يمكن أن نستفيده منه بصورة عملية فى الوقت الحاضر . ولا شك أن هذا التمييز لا يتم إلا على أساس معرفة عميقة بطبيعة كل علم ، وظروف نشأته وتطوره ، وأبرز أعماله وأعلامه . ولا شك أن القادرين على مثل هذا العمل قلة نادرة . وهم يعملون فرادى ومتناثرين . وفى الوقت الذى تجمع فيه جهودهم يصبح من السهل إنجاز هذه المهمة .

انتقل إلى دائرة التراث العلمى ، وقد اتضح الآن <u>مقياس التمييز بين تاريخ العلم، وبين أغراضه العملية .</u>

وهنا تصبح المهمة أكثر سهولة . فالطب العربى فى جانبه التاريخى إنجاز إنسانى رائع ، ولكنه فى الوقت الراهن لا يمثل إلا مرحلة الطفولة أو المراهقة فى عمر الطب المديد . وهنا يدخل هذا الجانب فيما يمكن أن نطلق عليه : تاريخ العلوم عند العرب أو المسلمين ، بعد أن توسع مفهوم هذا التاريخى ، ونحدد الغرض الجديد منه .

نفس الأمر ينطبق على علوم كالفلك والنبات والحيوان والكيمياء .. ولا غضاضة على الإطلاق من أن يتناولها تاريخ العلوم كإنجازات قام بها أسلافنا فى فترات زمنية معينة ، وكانت تمثل فى وقتها قمة التطور العلمى فى العالم . وإذا كان يوجد الآن فى جامعات الغرب فرع يدرس على استحياء باسم " تاريخ العلوم عند العرب " فإنه مقصور على الدائرة العلمية وحدها . أما الذى أطرحه هنا فهو أن يتسع هذا التاريخ ليشمل من داخل الدائرتين اللغوية والدينية بعض جوانب العلوم الموجودة بهما . وبذلك يتسع مجاله من ناحية ، ويتأكد من ناحية أخرى مدى إسهام العلماء المسلمين فى الحركة العلمية والفكرية ، باعتبارهم يمثلون حلقة وسطى بين العلم القديم فى عصر الإغريق وبين عصر النهضة فى أوربا .

الميدان إذن مفتوح لعمل كبير . لكن لابد من التخطيط لإنجازه على مراحل . وإذا كنا غير قادرين فى

المرحلة الحالية على تحقيق المخطوطات العربية بالكامل فما علينا إلا أن نحاول الاستفادة مما تم تحقيقه . لأنه من غير المعقول أن نظل فى انتظار تحقيق التراث العربى – الإسلامى بكامله دون أن نبدأ فى الاستفادة مما ظهر منه حتى الآن . والبداية هنا تتمثل فى تحديد الغرض من كل علم ، وإعادة تقييمه فى ضوء احتياجاتنا الحالية ، وبذلك يدخل هذا الجانب الحى من التراث فى نسيج حياتنا الثقافية ، ويمكن أن يطبق بسهولة فى حياتنا العملية .

1- أليس من المؤسف أن نظل حتى اليوم بدون كتاب مبسط وفعال ومعتمد يمكن الاستعانة به فى تعلم اللغة العربية وتعليمها لأبنائنا ولغيرنا ، فى نفس الوقت الذى بذل فيه أسلافنا جهودا تفوق الوصف فى خدمة اللغة العربية ؟

2- أليس من المؤسف أن نظل حتى اليوم بدون معجم معاصر للغة العربية ، يكون سهل التناول ، وجامعا لكل ما يحتاجه الإنسان العربى على كافة مستوياته الثقافية ، كما هو الحال فى المعاجم الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وحتى الصينية ، وذلك فى الوقت الذى يعد فيه أسلافنا هم رواد صناعة المعاجم اللغوية فى العالم كله ؟

3- أليس من المؤسف أن نظل حتى اليوم بدون كتاب فى مجلد واحد يضم تاريخ الإسلام والمسلمين : نشأة وتطوراً وازدهارا ، ثم ضعفا ومحاولة للنهوض من جديد ؟

4- أليس من المؤسف أن نظل حتى اليوم بدون موسوعة فقهية مبسطة ومتكاملة ، تجيب كل مسلم عما يعنّ له من أسئلة ، وتقدم عرضا شاملا لمختلف المذاهب والآراء التى قيلت حول مسألة معينة ؟

5- وأخيراً .. أليس من المؤسف أن نظل حتى اليوم بدون دائرة معارف إسلامية ، صحيحة وموثقة ، يستطيع أن يطمئن لها القارئ الذى يرغب فى استجلاء أى جزئية من جزئيات الحضارة الإسلامية بدلا من الاعتماد على دائرة المعارف الإسلامية التى وضعها الغرب ، وأعاد صياغتها حتى الآن مرتين ؟

إننى لا أذكر هذه الأمثلة الخمسة إلا لكى ألفت الأنظار إلى غياب الأغراض الحقيقية عنا فيما يتعلق بقضية إحياء التراث . ذلك أن العناصر الأساسية التى تتطلبها هذه الحاجات الغائبة موجودة فى قلب التراث العربى والإسلامى ، ولا تحتاج منا إلا لمسة بسيطة لإعادة تصنيفها ، وجعلها فى متناول الناس . ومن أبرز النماذج فى هذا الصدد ما يتعلق بعلم أصول الفقه ، وهو

كما يقال بحق : منطق الشريعة الإسلامية . إن الغرض الأساسى من هذا العلم هو تدريب الفقيه على الاجتهاد ، وتمكينه منه . فإذا لاحظنا أن معظم المؤلفات الرئيسية فى هذا العلم قد طبعت أو حققت ، أدركنا أننا قد "كدسناها" دون أن نستفيد منها على النحو المنشود .

وهنا أصل إلى نقطة هامة ، وهو ما أصبح يطلق عليه "نقد التراث" . وفى البداية لابد من التحفظ على من يتهم التراث بالرجعية والتخلف ، والخلو من الفائدة ، وفى نفس الوقت : عدم الموافقة مع من يعتبره كله مليئا بالفوائد . فكلا الموقفين تطرف : موقف الذين يصفون التراث بالجمود ، ومن ثم يهملونه ، وموقف الذين يضفون عليه القداسة ، ويرفضون كل ما سواه .

إن التراث محصلة عمل إنسانى خالص ، ومعنى هذا أنه قابل دائماً للصواب والخطأ . أما مسألة إضفاء العصمة عليه فهى مسألة سيكولوجية ، ترجع إلى أن كل ما هو بعيد عنا فهو كامل ومتسام . ومما ساعد على ذلك أن الأجيال السابقة قد كرّست تلك القداسة بمجموعة من العوامل ، من أهمها إضافة ألقاب فخمة على العلماء من أمثال (شيخ الإسلام ، حجة الإسلام ، الشيخ الأكبر وكذلك المعلم الثانى ، والشيخ الرئيس .. الخ) . ومن العجيب أن تكريس هذه العصمة يتعارض مع ما ورد إلينا فى قلب التراث نفسه ، من أمثال الأثر القائل " رأيى

صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب " ، " لا تعرف الحق بالرجال ، ولكن اعرف الحق تعرف أهله " ، وقول الإمام مالك " كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك ، إلا صاحب هذا القبر " أى الرسول ، صلى الله عليه وسلم .

لكن نقد التراث لا يعنى بأية حال التجرؤ على أعلامه ، أو الاستهانة بإنجازاته ، وإنما تناول كل رأى بالفحص والتحليل ، ومحاولة الإلمام بالظروف الاجتماعية والثقافية التى أحاطت به ، مع الاستعانة بكل ما أتاحه التقدم العلمى فى الوقت الحاضر من وسائل السبْر، وأدوات المقارنة للوقوف على مدى ما فى الآراء من جوانب الضعف والقوة ، وما تحتوى عليه من قدرة على الإنتاج والاستمرار . وطالما أن الهدف هو الرغبة فى الاستفادة من التراث ، فلن يكن هناك رفض بدون مبرر أو استبعاد بدون سبب .

وعلى أنصار التراث ، ألا يخشوا عليه من مثل هذه الحركة النقدية مهما كانت صارمة ، فإن هذا هو السبيل الوحيد لجعل التراث ينطق بما فى داخله . وقد أثبتت التجربة أن نشر المخطوطات بصورة حديثة ، وتجليدها تجليدا فاخرا ، ووضعها فى المكتبات العامة والخاصة لا يخرج عما أسميته " تكديس التراث " وهذا معناه أننا عندما نقوم بنقل التراث من حالته المخطوطة

إلى المطبوعة فإن هذا لن يبعث فيها ولا فينا الحياة ، وإنما على العكس تماما ، نحن الذين ننفخ فيه الحياة ، عن طريق قراءته وتحليله ، ونقده ، لمعرفة ما فيه من جواهر أو حصى .

إن كل ما فى التركة لا يستحق التوزيع ، وهناك الكثير مما أنتجه أسلافنا فى العصور السابقة لا ينبغى التوقف عنده كثيرا . إما لأن الزمن قد تجاوزه ، وإما لأنه هو نفسه غير قادر على مواصلة الإنتاج ، ومن ذلك مثلا : علوم السحر ، والتنجيم ، والفراسة ، والعيافة ، والسيمياء ، وأسرار الحروف . ومع ذلك فإن أمثال هذه العلوم والمعارف ينبغى أن تدرس ، ويحتفظ بها كعلامة على نشاط ثقافى ، كان يلبى حاجات اجتماعية ، فى فترات تاريخية معينة ، ولا مانع من البحث عن أسباب نشأتها وتطورها ، ومعرفة العوامل التى أدت إلى ظهورها واختفائها .

وهكذا فإن كل نص تراثى يتم تحقيقه ينبغى أن نقوم على الفور بطرح سؤالنا الأساسى أمامه ، وهو : ما الذى نستفيده منه فى حياتنا الثقافية والاجتماعية المعاصرة ؟ فإذا وجدنا فيه نفعا أخذناه ، وإذا لم نجد أحلناه إلى المختصين بتاريخ العلوم عند العرب لكى يصنفوه فى بابه .

والنتيجة أن التراث بهذا المفهوم يصبح وسيلة فى أيدينا ، وليس غاية . بمعنى أننا نحن الذين نستخدمه ، ونطوّعه بل ونوجهه أيضا لخدمة أهدافنا القريبة والبعيدة . وإذا كان قد مضى على الوعى بأهمية التراث حتى الآن ما يقرب من قرن ونصف فإن الأوان قد آن لتحويل هذا الوعى إلى إرادة وإلى خطط وإجراءات . وأنا أقترح أن نبدأ ببعض التجارب الأولية فى بعض المجالات القريبة من حاجتنا واهتماماتنا ، وليكن مثلا فى مجال النحو العربى ، والفقه الإسلامى .

هذا هو تصورى لكيفية الاستفادة من التراث ، على نحو عملى ينفعنا فى حياتنا المعاصرة ، ودون الدخول فى متاهات أو نظريات معقدة تجعل من التراث " لغزا " تتسلى بحله ، أو " ضريحا " نظل ندور حوله دون أن نصل إلى غاية محددة . وهنا سؤالان يحسمان القضية ؟

الأول : هل من المتصور مثلا أن نظل جالسين فى انتظار تحقيق كامل التراث العربى حتى نبدأ فى الاستفادة منه ؟

والثانى : هل من المتصور أن نظل نطبع التراث، بمعنى أن نخرجه من الحالة المخطوطة إلى المطبوعة، ثم نقوم بعد ذلك بتكديسه على أرفف المكتبات دون أن نستخرج ما فيه بالفعل من فائدة حقيقية .

هوامش الفصل الأول :

([1]) فى الثقافة العربية القديمة ، أطلق المسلمون على العلوم والثقافة التى نقلوها من الخارج اسم "علوم الأوائل" وكان يقصد بها الطب والحكمة والرياضيات والفلك ..الخ.

([2]) من ذلك على سبيل المثال : نقد ابن مضاء (ت) لنظرية العامل عند النحاة ، ونقد ابن تيمية (ت 728 هـ) لمنطق أرسطو ، ومجموعة ابتكارات ابن خلدون (ت 808هـ) فى مقدمته .

([3]) اخترع جوتنبرج الألمانى الطباعة بالحروف المتحركة سنة **1454**، وانتشرت مع ظهور الصحف والمجلات ابتداء من سنة **1500** فى أوربا كلها . أما فى الشرق فكانت الأستانة عاصمة الخلافة العثمانية أسبق مدن الشرق إلى الطباعة .

([4]) انظر مدخل إلى نشر التراث العربى للدكتور : محمود الطناحى ص 33 وما بعدها.

([5]) نشير هنا على سبيل المثال – إلى ما حققه كل من محمود شاكر ، والسيد صقر ، وسليمان دنيا ، وعبدالسلام هارون ، وإبراهيم الأبيارى ، وأحمد أمين ، وانظر عنهم ، وأمثالهم كتاب : مدخل إلى نشر التراث العربى للدكتور محمود الطناحى .

([6]) انظر فى قواعد وطرق التحقيق : أصول نقد النصوص ونشر الكتب لبرجشتراسر، تحقيق النصوص ونشرها لعبد السلام هارون ، قواعد تحقيق النصوص للدكتور صلاح الدين المنجد بمجلة معهد المخطوطات العربية **1955** المجلد الأول – جـ2 .

([7]) هذه هى الطريقة الدولية التى تم الاعتراف بها فى تحقيق الكتب الأوربية ، وقد حاول البعض نقلها إلى العالم العربى ، ولكنها لم

تحظ بالانتشار حتى الآن . ومن أمثلة ذلك ما تم فى كتاب "الفتوحات المكية" الذى يقوم بتحقيق أجزائه د. عثمان يحيى ، كما أننى طبقت هذه الطريقة فى كتاب "روح القدس" لابن عربى بناء على توجيهات أستاذى المرحوم محمود قاسم . وكانت من أهم معوقات طبعة على مدى ثلاثين عاما.

(8) حاول الكاتب الكبير يحيى حقى تنفيذ ذلك أثناء رئاسته لمجلة "المجلة" وكلف أستاذى السيد أحمد صقر بهذا العمل ، الذى نهض به على نحو رائع ، ولكن عمله أغضب المحقق كثيرا ، وأخاف الآخرين العاملين فى مجال التحقيق ، فأغلق باب "نقد التحقيق" من يومها .

(9) كان الاتحاد السوفيتى يمنع العرب من الاطلاع والاستفادة من تراثهم الموجود بكثرة فى البلاد الخاضعة له، والآن تحررت الجمهوريات الإسلامية ، وأصبح من الضرورى التعاون معها فى هذا المجال بعد زوال العقبة الرئيسية.

(10) أرجو أن يتنبه لذلك القائمون على أمر الجامعات المصرية والعربية ، فهذا الميدان لا يقل أهمية عن كليات السياحة والفنادق التى راحت تنتشر انتشارا واسعا فى الوقت الحاضر .

(11) مع الأسف ، تسود عملية النشر فى العالم العربى روح الكسب المادى فقط ولا ينظر العاملون فى هذا الميدان إلا إلى الكسب من الكاتب والقارئ على السواء . وهم بذلك يفسدون مجالا من أهم مجالات بث وتنظيم الثقافة العربية والإسلامية . وقد تدخلت الحكومات العربية للإنقاذ ولكن القائمين على ذلك وقعوا فى نفس الخطأ والخطيئة .

(12) يحدث ذلك فى الغرب بصورة جيدة ، ولدى من أعمال كبار المفكرين والفلاسفة نماذج للمستويات الثلاثة. وأوضح مثال لذلك ما قام به الفرنسيون بالنسبة لكتاب "مقال فى المنهج" لديكارت .

[13] انظر فى هذا الصدد كتابنا بعنوان "الخطاب الأخلاقى فى الحضارة الإسلامية : نمائج تحليلية " حيث قمنا فيه بجمع نماذج أخلاقية من الفلاسفة ، والفقهاء، والأدباء ، والوعاظ ، بعد أن كان يقتصر الاختيار فقط عن الفلاسفة أو الوعاظ .

[14] انظر موضوع : المشكلات الحقيقية والزائفة فى الفلسفة الإسلامية فى كتابنا : الفلسفة الإسلامية : مدخل وقضايا – دار الثقافة العربية – 1991.

الفصل الثانى

الترجمة في العالم العربي

يدور الحديث فى الغالب عن الترجمة كتقديم لكثير من الدراسات الأدبية والعلمية ، سواء ما تناول منها العصور القديمة ، أو العصر الحديث . ويكفى أن نفتح أى رسالة جامعية تتعرض لتاريخ الأدب أو العلوم، فى العصر العباسى أو العصر الحديث ، لنجد فيها عنوانا خاصا بالترجمة ، وبالفائدة الكبرى التى حققتها، وأبرز أعمالها وأعلامها . ومن ناحية أخرى، فقد يجرى الحديث أحيانا عن الترجمة من جانبها الفنى الخالص ، أى الذى يبين طريقة ترجمة المصطلحات والعبارات ، وينبه إلى ضرورة مراعاة السياق ، وعدم الوقوع فى أخطاء الترجمة الحرفية[1].

بل من الملاحظ أيضا أن يجرى تناول موضوع الترجمة فى إطار البحث عن مشكلات الكتاب العربى وتوزيعه ، على مستوى "الناشرين" ، كما حدث فى مايو 1973 ، حين دعت مجلة الكاتب الجزائرية إلى ندوة تجمع الناشرين ليبحثوا معاً "مشكلات توزيع الكتاب العربى" .. ومن بينها : الترجمة!

أما الغائب فعلا فهو الدراسة - أو الدراسات - التى تتناول الترجمة بنظرة مستوعبة تقوم على أساس منهجى بغرض الوصول إلى تحقيق عمل كبير ينهض بها . إننا بحاجة ماسة إلى ما ينبهنا إلى أهمية الترجمة فى حركة العلم والثقافة[2]، وهذا يتطلب أن نبين دورها الحيوى فى النهضة الحاضرة ، وأن نتتبع فى نفس الوقت تاريخها ، ونوضح خطوط تطورها ، ونضع لها الأسس والمعايير الكفيلة بتصحيح مسارها ، وتحقيق أهدافها ، باعتبارها أحد الروافد الرئيسية فى نهضة الفكر القومى ، ودفع حركة البحث العلمى والثقافة إلى الأمام .

ونحن عندما نتحدث عن الترجمة ، لا ينبغى أن ننظر إليها على أنها "غاية فى ذاتها" ، وإنما هى "مجرد وسيلة" لدفع وتطوير وتطعيم "حركة التأليف". وإذا ما علمنا أن العالم العربى كله يقدم 1% سنويًا من الإنتاج العالمى فى مجال التأليف- وأن 75% من هذه النسبة الضئيلة مخصص للكتب المدرسية والجامعية[3]- أدركنا على الفور أن حركة التأليف فى العالم العربى ضعيفة ، بل إنها متخلفة إلى حد كبير.

لذلك يجب تدارك النقص فيها ، والعمل على تنشيطها بمختلف الوسائل، وفى اعتقادنا أن أهم هذه الوسائل هى الترجمة .

الموضوع إذن حيوى ، وهو يفرض نفسه كضرورة ملحّة على حياتنا الثقافية المعاصرة ، كما فرض نفسه من قبل على أجدادنا فى العصر العباسى.

والمنهج الذى نفضل عرض هذا الفصل على أساسه يتكون من الخطوات التالية :

1- بيان أهمية الترجمة بصفة عامة ، وخطورتها فى بعض المراحل .
2- عرض تاريخى يربط بين فترات الازدهار الثقافى فى فكرناالعربى ، وحركة الترجمة قديما وحديثا .
3- أهم مظاهر القصور فى الترجمة إلى العربية فى العصر الحديث .
4-اقتراح يتضمن عددا من الأسس والمبادئ التى يمكن أن تعتمد عليها حركة الترجمة ، وتصبح من التقاليد الثابتة لها .

أولا : أهمية الترجمة وخطورتها

تثبت التجربة الإنسانية أنه لا حدود للدور الذى تقوم به الترجمة فى تبادل أفكار الشعوب ، والتعبير عن الرغبات والمصالح ، وتوضيح وجهات النظر والتمهيد للاتفاقيات والمعاهدات ، وبالإضافة إلى ذلك كله، فهى –

من الناحية الثقافية – المرآة التى يمكن للروح القومية أن ترى فيها نفسها بجوار الآخرين ، وبذلك فإنها تفتح بابا واسعا للمقارنة ، والمنافسة ، وطلب التقدم الغريزى فى طبيعة البشر.

وهى عبارة عن رحلة مفيدة جدا وممتعة معا ، يقوم بها العقل القومى لمشاهدة كل ما هو مختلف عنه ومن هذه الزاوية ، فإن الترجمة تساعد على سعة الأفق وتوسيع إطار المعرفة .

وأخيراً فإن الترجمة ستظل أهم الوسائل لفهم ما لدى الشعوب الأخرى من علم وثقافة ، ما دمنا لا نستطيع جميعا أن نتعلم كل اللغات ، وما دامت اللغة – وستظل – هى الأداة الرئيسية لفهم الآخرين ، والتفاعل معهم عن طريق التأثير والتأثر . يرى المستشرق ماسينيون أنه لا يوجد تأثير وتأثر حقيقى بين أمتين إلا عن طريق اللغة – ومع إمكانية مناقشة هذا الرأى إلا أنه يبرز الأهمية الكبرى للغة فى عمليتى التأثير والتاثر .

ثم إذا جاز لنا أن نستخدم "المجاز" فى تحديد الدور التى تلعبه الترجمة فى دورات الفكر المختلفة ، لقلنا إنه عبارة عن واحد من ثلاثة :

- فعندما يزدهر الفكر القومى لأمة ما ، تصبح الترجمة إليه نوعا من "التطعيم" الذى يحسن النسل ، ويساعد على إنتاج أصناف أقوى وأفضل كما هو مشاهد حاليا فى لغات الأمم المتقدمة .

- وعندما يتعثر هذا الفكر ، تصبح الترجمة نوعا من "التسميد" الذى يجدد شباب التربة ، ويمتزج بها مدعّما عناصرها الضعيفة .
- أما عندما ينحدر هذا الفكر ، فإن الترجمة إليه تغدو عندئذ عبارة عن عملية "نقل دم" تعيد ملء الأوعية والأوردة بدمٍ آخر قوى ، حتى يدق القلب من جديد.

ومن العجيب أن هذه "المجازات" الثلاثة يمكن أن تطبّق ، وتنطبق ، على فكرنا العربى فى مختلف مراحله التاريخية ، والتى سنستعرضها بعد قليل .

لكن فى المقابل من ذلك ، إذا كان للترجمة هذا الدور الحيوى فى حركة الفكر ، فلا ينبغى أن نغفل عن أنها قد تكون ذات أثر سئ أو خطير. ويتمثل ذلك فى ترجمة ما يمس أخلاق الأمة ، وشعورها القومى والدينى وخاصة فى أوقات الأزمات التى تمر بها .

كما أنه قد لا يكون للترجمة أحيانا أى أثر مفيد على الاطلاق . ويمكن الوقوف على ذلك من ترجمة بعض المؤلفات العلمية التى مضى على محتواها العلمى زمن طويل ، وتخطاها العلم المتجدد بمراحل كثيرة . ومن ذلك أيضا ، وفى كثير من الأحيان ، ترجمة روايات التسلية المنتشرة فى أوربا ، والتى لا تتلاءم مع ذوق الشعب العربى ومزاجه ، وخاصة فى تلك المرحلة الحرجة من نهضته الحاليه.

ومن الطبيعى أن يظل مقياس الحكم بالفائده وعدمها نسبيا ، إذ يمكن دائما أن يستحسن البعض ما لا يستسيغه الآخرون . ولكننا نعتقد أنه مع تزايد الإحساس بالمسئوليه الثقافيه ، وبالمسئولية القومية أيضا ، سوف تقترب بالتدريج الآراء المتباعدة ، ووجهات النظر المختلفة ، وربما التقت على أرض مشتركة .

ثانيًا : العرض التاريخى :

فى العصر الجاهلى ، كان العرب فى غالبيتهم بدوا : رعاة وتجارا بسطاء، والمسيحيون الذين عاشوا بينهم أميين ، واليهود طوائف منغلقة على نفسها ، وضنينة بما لديها من علم التوراة ، لذلك لا نتوقع أن نجد فى العصر الجاهلى حركة ترجمة بالمعنى المعروف وكل ما يمكن تصوره ، ولا ينبغى استبعاده ، هو وجود بعض الأفراد الذين كانوا يسهلون مهمة الاتصال "التجارى فى الغالب" بين القوافل العربية التى كان لها اتصال موسمى مع التجار الأجانب فى الشام والعراق واليمن[4]، كذلك كان الأمر يتطلب وجود نوع من الترجمة فى بلاط كل من الغساسنة "العرب التابعين لدولة الروم"، والمناذرة "العرب التابعين لدولة الفرس" على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية[5].

وفى بداية ظهور الإسلام ، أثناء العهد المكى ، حدثت هجرة إسلامية إلى الحبشة . ويحدثنا التاريخ عن توافر شروط الترجمة الفورية فى ذلك اللقاء الشهير الذى جرى بين النجاشى ، والمهاجرين المسلمين ، والوفد القرشى الذى ذهب لاستردادهم[6].

وبعد قيام الدولة الإسلامية فى المدينة ، يروى أن الرسول ،صلى الله عليه وسلم، حثّ زيد بن ثابت على تعلم اللسان العبرى لكى يقوم بدور الترجمة بينه وبين زعماء اليهود فى المدينة[7].

ومع ذلك ، فإن كل هذه المظاهر البسيطة للترجمة لا تكوّن فى مجموعها ظاهرة عامة بحيث يمكن أن تكون لها تأثير واضح فى حياة المجتمع، وخاصة فى الجوانب العلمية والثقافية . وهذا يؤدى بنا إلى القول بأن الترجمة ثمرة حضارية لنشاط مجتمع معقد التركيب ، وأنها لا تنضج بصورة كافية لدى الشعوب ذات الحياة العفوية البسيطة .

ومما لا شك فيه ، أن العرب قد تحولوا بالإسلام تحولا جذريا ، وكان عليهم أن يخرجوا به من حدود شبه الجزيرة العربية ، لنشره فى الشام والعراق والهند ، وفى مصر وشمال إفريقية ، وهى مناطق كانت لها حضارات مختلفة ، ولها لغاتها الخاصة .

وهكذا مر العصر الأموى (40 - 132هـ) - عصر المد الإسلامى السريع المدهش - دون أن نجد

حركة ثقافية واسعة ، تشمل الترجمة ، وكل ما لدينا فى هذا العصر لا يخرج عن مثالين :

(أ) خالد بن يزيد ، والى الأمويون على مصر ، الذى يقال أنه كان ذا شغف بالكيمياء ، ويقال أيضا إنه ترجم فيها ، أو شجع بعض الأقباط على ترجمة بعض رسائلها[8].

(ب) عمر بن عبد العزيز (ت 101هـ) الذى شجع على ترجمة بعض الرسائل فى الطب ، وهذا غير مستبعد ، نتيجة ضرورته فى الحياة العملية[9].

لكن بمجئ العصر العباسى (132هـ) أصبح فى حوزة المسلمين امبراطورية شاسعة ، ثابتة الدعائم تقريبا من الناحية العسكرية ، والسياسة الخارجية ، لذلك فقد أتيح للمسلمين فى العصر العباسى فرصة بناء حضارة مزدهرة ، وخاصة فى النواحى العمرانية ، والعلمية ، والثقافية . فالمنصور يبنى بغداد التى ورثت كلا من القسطنطينية والإسكندرية ، وكانتا أكبر مراكز الثقافة فى العالم القديم ، والمأمون يبنى "بيت الحكمة" وكان عبارة عن مؤسسة ثقافية ضخمة :

- خصص فيها مكانا لسكنى المترجمين . ومن الجدير بالذكر أن هذا العمل لم يحدث فى أى حركة ترجمة حتى الآن ! جلب إليها كل ما أمكن العثور عليه من مخطوطات فى شتى الثقافات

التى وجدها العرب ، وبمختلف اللغات : عبرى ، فارسى ، هندى ، سريانى ، يونانى . ويلاحظ أن هذا يحدث حاليا فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية والصين واليابان ، كما كان يحدث على نطاق واسع فى الاتحاد السوفيتى السابق .

- كانت تجرى فيها عمليات الترجمة ، والمقابلة ، والتصحيح .
- كانت تحت إشراف الخليفة نفسه.

ومع ذلك ، فقد كان لتشجيع أثرياء ذلك العصر أثره البالغ فى دفع الحركة الثقافية بصفة عامة ، وحركة الترجمة على نحو خاص . ولا ننسى فى هذا المجال الأثر الطيب الذى تركه البرامكة ، وأسرة ابن شاكر[10].

ويلاحظ أن الترجمة أصبحت فى هذا العصر مهنة أو حرفة يرتفع بها أصحابها إلى أعلى المناصب ، نتيجة اتصالهم بالخليفة نفسه ، كما كانوا يتلقون على عملهم فيها أجزل الرواتب والمنح ، حتى أننا لا نكاد نصدق ما يروى من أن مكافأة الترجمة كانت أحيانا تقدّر بوزنها ذهبا[11].

وهنا لا بد من تسجيل عدة ملاحظات :

<u>الأولى</u> : أن معظم المترجمين فى البداية كانوا مسيحيين أو يهودا "حنين بن اسحاق ، وثابت بن قرة" ثم بعد ذلك بدأ المسلمون يسهمون فى الترجمة "الكندى"[12].

الثانية : طواعية اللغة العربية فى استيعاب ما نقل إليها وقدرة أهلها حينئذ على صك وتطوير المصطلحات العلمية والفلسفية الجديدة .

الثالثة : *كان أهم ما ترجم فى العلوم : الحساب ، والطب والفلك ، والهندسة، والنبات بالاضافة إلى الفلسفة ، وأهم ما أعجب العرب من هذه الأخيرة هو القسم الخاص* بالمنطق[13].

الرابعة : أن الترجمة عن اليونانية لم تكن تتم فى البداية إلى اللغة العربية مباشرة ، وإنما كانت تتم إلى السريانية ، ثم إلى العربية ، وكثيرا ما وجد العرب المؤلفات اليونانية ذاتها مترجمة للسريانية . ومن ناحية أخرى فإن ما ترجم عن الفارسية والهندية كان أقل من ذلك .

والسؤال الآن : لماذا كانت الترجمة عن اليونانية " أو السريانية أكثر من الفارسية ؟

ويمكن الإجابة بأن الفرس أنفسهم كانوا قد اعتنقوا الإسلام ، وتعلموا اللغة العربية ، بل أجادوها إلى الحد الذى فاقوا فيه العرب أنفسهم فى مجال التأليف بها: سيبويه فى النحو ، وابن قتيبة فى الأدب ، وعبد القاهر الجرجانى فى البلاغة " كما يلاحظ أن كثيرا من مفكريهم كانوا يكتبون باللغتين العربية والفارسية " ابن سينا ، والغزالى فيما بعد " ، وبالاضافة إلى ذلك ، كانت قد تمت بالفعل ترجمة كثير من عناصر الفكر اليونانى إلى اللغة

الفارسية ، ودخل فى تكوين الفرس أنفسهم ، وربما كان هذا أحد الأسباب التى ما زالت حتى اليوم تدهش العرب ، وهى غلبة العنصر الفارسى للمؤلفين على العنصر العربى فى ميدان الحضارة الإسلامية .

وسؤال آخر : لماذا لم تحدث حركة الترجمة إلى العربية فى الأندلس "أسبانيا المتاخمة لأوربا" والتى بدأ المسلمون فى السيطرة عليها مع بداية الدولة العباسية ؟

ويمكن الإجابة بأن معظم التراث الأجنبى كان قد تم نقله إلى العربية بالفعل فى العصر العباسى الأول .. وما أن استقرت الحضارة الإسلامية فى الأندلس حتى تلقت هذا التراث - معرّبا جاهزا - من بغداد، ونحن نقرأ كثيرا عن الرحلات الكثيرة التى كان يقوم بها علماء الأندلس إلى كعبة العلم المشرقية "بغداد " ، ثم ما تبع ذلك من " حركة محاكاة " أندلسية لكل ما هو " مشرقى " [أى بغدادى أو شامى] فى المجالات الأدبية والاجتماعية على السواء .

وإذا كانت حركة الترجمة فى العصر العباسى قد تمت بكفاءة واضحة فى أغلب الأحيان ، فإنها ، كأى عمل إنسانى ، لم تسلم من بعض مظاهر القصور ، فعلى الرغم مما امتازت به فى مجال التحقيق ، والضبط ، والتثبت من النص ، والحفاظ ما أمكن على معناه ، وإيجاد المصطلحات المناسبة له - كان يحدث أحيانا أخطاء ، كما وقع مثلاً فى نسبة كتاب عن الفلسفة

الأفلاطونية المحدثة "وهى نزعة روحية شرقية متأثرة بالفلسفة اليونانية" ، إلى أرسطو "وهو صاحب فلسفة عقلية ، طبيعية كما نعلم" ، وقد تسبب هذا الخطأ فى توجيه جانب من الفلسفة الإسلامية ، لزمن طويل ، وجهة خاصة ، وأنتج لها مشكلات تتعلق بالتوفيق بين ما جاء فى الكتاب المشار إليه ، وبين ما هو موجود بالفعل لدى أرسطو فى سائر مؤلفاته الحقيقية[14].. حتى جاء ابن رشد (ت 556هـ) فأصلح هذا الخطأ ، عندما قام بشرح وتلخيص مؤلفات أرسطو على أساس علمى موثق[15].

أما المظهر الثانى للقصور ، فقد حدث فى مجال الأدب ، وذلك عندما أغفلت أو استبعدت ترجمة المسرحيات والملاحم الإغريقية ، والتى كان من الممكن أن تؤدى إلى تطعيم الأدب العربى - الذى ظل حتى بداية القرن العشرين محافظا على شكليْه التقليديين من الشعر والنثر - ومن المعروف أننا أخذنا المسرح من أوربا ، التى أخذته بدورها من الإغريق ، فماذا كنا نتخيل لو أننا ترجمنا المسرح الإغريقى فى ذلك العصر ، وقدّم لأدبائنا فزودهم بوسيلة تعبير أخرى ، غنية ومركبة ، يحاولون فيها ، فيخطئون وينجحون ، على مدى عشرة قرون!

لقد قيل عن السبب فى عدم ترجمة المسرحيات الإغريقية أنها كانت تمتلئ بالإشارة إلى تعدد الآلهة ، وتصارعها فيما بينها ، ونزولها للمشاركة فى الصراعات

الإنسانية ، وهذا يتعارض تماما مع أصول الدين الإسلامى الذى نادى بالتوحيد والتنزيه ، وقد يكون ذلك صحيحا إلى حد كبير ، لكننا من جانب آخر، نرى أن المسلمين قد ترجموا الفلسفة الإغريقية ، وأعجبوا كثيرا بأرسطو، الذى تخلو فلسفته من فكرة الألوهية ، لذلك فإننا نميل إلى أن الإحجام عن ترجمة الأدب المسرحى الإغريقى كان نوعا من مراعاة الشعور الدينى للمسلمين، وخاصة من جانب اليهود والمسيحيين الذين كان يتكون منهم معظم المترجمين.

على أننا لا نستبعد أيضا جانبا من القصور فى فهم الشعر المسرحى، ساعد عليه غياب"عملية الإخراج " التى تعين على فهم هذا الشعر ، وفى تصورنا أن المترجم العربى وجد نفسه أمام نص ، بارد أو معقد ، ملئ بالحوار ، ومطعم بالأناشيد الجماعية " أغانى الجوقة " .. لكنه بعيد عن خشبة المسرح التى تعطى لهذا الحوار حرارته وحيويته ، فما كان منه إلا أنه استبعد مثل هذا النص ، وذلك بالإضافة طبعا إلى أنه كان يتطلب مشاركة النساء فى التمثيل على نحو علنى أمام الجمهور ، وهو الأمر الذى لم يكن مقبولا فى المجتمع الإسلامى .

وعلى الرغم من مظاهر القصور تلك التى أشرنا إليها ، فإن حركة الترجمة إلى العربية فى العصر العباسى الأول ، قامت بدور هام فى دفع الحركة العلمية

والثقافية خطوات إلى الأمام ، ولا يكاد يوجد باحث واحد ينكر أهمية هذا الدور ، وتأثيره الضخم فى حركة التأليف التى أعقبت أو واكبت حركة الترجمة ، ويكفى مثالا على ذلك أن نتتبع تأثير منطق أرسطو، بعد أن تمت ترجمته إلى اللغة العربية ، فى معظم المؤلفات التى دونها المسلمون ، سواء فى مجال العلوم اللغوية والدينية ، أو فى العلوم الحكمية والتجريبية .

والنقطة التى نود أن نؤكد عليها فى هذا المقام أن المسلمين بعد أن تم لهم فتح بلاد الحضارات القديمة " وخاصة بلاد فارس والروم " أسرعوا باقتباس ما لديها من عناصر ثقافية وحضارية وجدوها مناسبة لهم ، وتمكنوا من مزجها بسرعة فى حضارتهم الصاعدة ، دون أن يثيروا مشكلات زائفة حول مشروعية هذا الاقتباس ، ويلفت النظر أنها كانت تجرى بموافقة أعلى سلطة فى الدولة ، وبتشجيع الأمراء ، وكبار الأثرياء .. وإذا كان قد ظهر للترجمة معارضون فى ذلك الوقت ، فإن هؤلاء المعارضين لم يطالبوا بإيقاف حركة الترجمة ، وإنما كان مطلبهم الأساسى - وهم حماة التراث العربى الإسلامى - ألا يطغى الوافد على الأصيل ، وأن يوضع كل منهما فى مكانه الصحيح(16).

لقد ظلت الحركة الفكرية فى أوربا خامدة ، طيلة العصور الوسطى، حتى استيقظت أخيرا على النهضة

الإسلامية التى ازدهرت فى الأندلس ، وهنا أسرعت دول أوربا بـ :

1-إرسال أبنائها إلى التعلم فى الجامعات الإسلامية فى قرطبة وغرناطة وإشبيلية.
2-إنشاء الجامعات المماثلة فى إيطاليا وانجلترا وفرنسا.
3-القيام بحركة ترجمة واسعة ، من العربية أولا ، ثم بعد ذلك من اليونانية.

فكيف كانوا يترجمون من اللغة العربية ؟ - كانت عملية الترجمة تجرى بحضور:

أ- شخص أسبانى " يهودى فى الغالب " يعرف العربية ويتكلم لغة أسبانية محلية .
ب- شخص أوربى على معرفة بتلك اللهجة المحلية
جـ- شخص ثالث يجيد اللاتينية .

وتتم الترجمة بأن ينطق الشخص الأول الكلمة العربية ثم يقوم بتحويلها شفوياً إلى اللهجة الأسبانية ، وهنا يتلقاها الشخص الثانى ليحولها إلى اللاتينية الدارجة ، وأخيرا يقوم الثالث بتسجيلها ، بعد أن يحولها هو الآخر - حسب القواعد اللغوية - إلى اللاتينية المكتوبة .. [17].

ويمكننا أن نقف على مظاهر القصور فى هذه الطريقة فيما يلى:

1- الحرفية فى ترجمة النص جملة جملة ، أو كلمة كلمة ، وما يؤدى إليه من فقدان الترابط العام بين أجزاء النص .
2- الشفوية ، بمعنى أن العبارة تتحول مرتين على لسان شخصين مختلفين ، ومع تلافى المخاطر التى قد تذهب تمامًا بالمعنى ، فإنها تفقده الكثير من الظلال المحيطة به.
3- عدم المباشرة ، فالمترجم الفعلى هنا ، وهو الشخص الثالث لا يعرف العربية

ومن هنا جاءت معظم الأسماء العربية مشوهة فى اللغات العربية، كما فهم فيلسوف عربى كابن رشد على نحو خاص جدا . ومع ذلك ، فقد أدى هذا الفهم إلى إشعال الشرارة فى العقل الأوربى ، الذى بدأ يثور على سلطة الكنيسة حينئذ ، ويعود إلى الفكر اليونانى القديم ، بعد أن شاهد روعته عن طريق اللغة العربية ، لكى ينقله مرة أخرى ، بكثير من الدقة إلى اللغة اللاتينية ومنها انتشر إلى سائر اللغات الأوربية المعروفة حاليا .

إن مشروع استفادة أوربا من العالم العربى والإسلامى فى مجال الترجمة لم يظهر تماما فى كل أبعاده . ونحن نعتقد أنه على الباحثين الغربيين تقع فى المقام الأول مسئولية بيان دوافع هذا المشروع ، وآثاره المباشرة على الحضارة الأوربية الحديثة . ويوم يفعلون ذلك ، فإنهم يكونون قد أسهموا – علميا وإنسانيا – فى

إزالة جانب كبير من سوء التفاهم القائم حتى الآن بين الشرق والغرب ، أو بصورة أدق ، بين أوربا والعالم الإسلامى .

لقد كان تأثير الحضارة الإسلامية عن طريق أسبانيا الإسلامية"الأندلس" أقوى بكثير منه عن طريق الشرق ، خلال الحروب الصليبية ، التى استمرت قرابة قرنين كاملين . ونحن نذهب إلى أن زيادة هذا التأثير إنما ترجع فى المقام الأول إلى الترجمة ، فهى الأسلوب الطبيعى لنقل الأفكار ، وبعث النهضة الثقافية، أما الاتصال الذى تمّ بين الأوربيين والمسلمين خلال فترة الحملات الصليبية فإنه لم يثمر نفس الثمرة ، لأن أهل أوربا لم يبذلوا من جانبهم أى محاولة جادة للتعرف على ثقافة المسلمين ، وانحصر كل ما عادوا به – بعد حوالى مائتى عام من الإقامة ببلاد الإسلام – فى بعض العادات الحربية ، وخيالات ألف ليلة وليلة !

وفى الوقت التى بدأت فيه أوربا تستيقظ على ثمار النهضة الإسلامية فى الأندلس ، كان العالم الإسلامى – وخاصة بعد سقوط بغداد على أيدى التتار – يدخل مرحلة طويلة من الركود العلمى والثقافى. ومن المعروف أن فترة حكم المماليك والعثمانيين قد عزلت العالم الإسلامى عن الشعوب الأخرى ، وانعدم الاتصال أو كاد ، فتوقفت الترجمة . أما التأليف ، أو بعبارة أدق : التصنيف ، فقد تراوح بين اختصار المؤلفات القديمة ، أو

شرحها فى مطولات ، أو نظمها شعرا تعليميا لا حياة فيه[18].

وفى العصر الحديث ، كانت لحملة بونابرت على مصر والشام (1798 - 1801 م) أثار بعيدة المدى ، ليس على هذين البلدين وحدهما ، وإنما على أجزاء العالم العربى والإسلامى كله ، فقد كانت هذه الحملة طليعة الاستعمار الحديث ، والصدمة التى أوقفت المسلمين على ما آل إليه حالهم . ومن حسن الحظ أن تلك الصدمة لم تفقد المسلمين وعيهم ، بل على العكس أعادت إليهم هذا الوعى بصورة حادة، فأسرعوا بمقاومة المستعمر الأجنبى ، فى نفس الوقت الذى أدركوا فيه أنه لابد عليهم أن يستفيدوا من خبرته لتعويض تخلفهم الطويل . . وكان أهم ما حدث فى المجال الثقافى أمرين سارا معا ، وربما بنسب متفاوتة :

الأول : تمثل فى العودة إلى التراث القديم بإعادة طبعه ، وتحقيقه ، ونشره ، وساعد على ذلك وجود المطبعة التى تركها نابليون فى مصر.

الثانى : القيام بحركة ترجمة فورية ، قادها فى مصر رفاعة الطهطاوى ، بالإضافة إلى نخبة من كبار المثقفين فى لبنان.

وهنا لابد أن نعترف بأن التحدى ، بالنسبة إلى العرب بالذات ، كان صعبا : فعندما قام العرب بحركة الترجمة الأولى فى العصر العباسى كانوا هم الفاتحين ،

والحكام ، وذوى السلطان فى البلاد . أما فى حركة الترجمة الثانية ، فى العصر الحديث ، فقد كانوا هم الخاضعين والتابعين والمحكومين ، وما يمكن أن يستتبع ذلك كله من ضغط نفسى ومادى يقيّد حركتهم ، ويعوقهم أحيانا عن حرية الاختيار، بل ويفرض عليهم فى أحيان أخرى بعض الاتجاهات المعينة.

وإذا كانت الترجمة قد بدأت فى مصر ولبنان ، فإن اتجاه كل منهما فى هذا المجال كان مختلفا ، أما فى مصر ، فكانت الترجمة نتيجة للبعثات العلمية التى أرسلها محمد على إلى أوربا ، وخاصة فرنسا . وكان الغرض الأساسى منها عسكريا . وأما فى لبنان ، فنتيجة إنشاء االجامعة الأمريكية ومدرسة القديس جوزيف ببيروت ، وتعدد الإرساليات المسيحية للتبشير ، وكان الدافع وراءها دينيا وسياسيا.

والملاحظ أن الترجمة فى لبنان قد غلب عليها الطابع الأدبى والفلسفى ، فى حين غلب الطابع العلمى على بداية حركة الترجمة فى مصر. وإذا تساءلنا عن السبب فى ذلك ، وجدنا أن الترجمة فى مصر كانت موجهة من الدولة ، أو من محمد على مباشرة ، ومن هنا كانت خاضعة للاحتياجات العملية ، بينما كانت الترجمة فى لبنان متروكة لهوى الأفراد ، وكانوا متابينين فى ميولهم وثقافتهم .. ومع ذلك ، فقد عادت مصر تأخذ باتجاه لبنان ، فغلب عدد المؤلفات المترجمة فى الأدب

على المؤلفات العلمية (تشير إحصائية أجريت سنة 1973 إلى أن ما ترجم فى الآداب 1860 كتابا ، بينما بلغ فى العلوم 473 كتابا فقط)[19].

وهنا يمكن أن نضع أيدينا على واحد من أهم مظاهر القصور فى الترجمة فى العصر الحديث ، وهو التركيز على جانب الدراسات الإنسانية أكثر من جانب العلوم التجريبية والبحتة ، مع أن الجانبين ، كما هو معروف ، لا ينفصلان ، ولا يمكن لأى حضارة أن تزدهر دون الاعتماد عليهما معا.

وفى هذا الصدد لابد من التعرض لدعوى تثار من وقت لآخر ، دون أن يحسم فيها برأى ، يتم الاتفاق عليه ، على الرغم من أهميتها الحيوية فى مجال نهضتنا الحالية : يرى أصحاب الدراسات التجريبية والرياضية أن الترجمة إلى العربية فى مجال تخصصاتهم غير مجدية ، لأن الطبيب بعد أن يتعلم الإنجليزية مثلاً يمكنه الرجوع بسهولة إلى المراجع المكتوبة فى تلك اللغة ، دون الحاجة إلى استخدام اللغة العربية ، وكذلك الحال بالنسبة إلى المهندس ، وعالم الطبيعة ، والكيميائى ، وعالم الرياضيات.. الخ ، وهذه نظرة صحيحة ، لكنها تدور فى فلك ضيق ، إذ أنها رغم فائدتها العملية القصيرة المدى تنكر على المقدرة العربية أن تؤتى ثمارها على المدى الطويل ، بل وتبقى على تبعيتها المستمرة للغات الأخرى، وهذا ما يتنافى مع طبيعة شعب استطاع فى الماضى أن

يستوعب" علوم الآوائل " وأن يقيم منها بناء خاصا به ، يحمل طابعه ويتمشى مع واقعه.

ولا يمكن لمعترض أن يقول : هذا رد متعصب ، فى عصر يتميز بالعالمية وتحطيم الحواجز بين الدول ، وخاصة فى مجال العلم والثقافة ، لأن الدعوة القوية إلى الترجمة – التى ندعو إليها بكل قوة – هى فى حد ذاتها ضد التعصب ، وهى إلى جانب ذلك تفتح باب الأخذ والعطاء ، باعتباره الباب الطبيعى إلى التقدم . والمطلوب إذن هو قدر من الجهد المخلص ، المنظم ، الذى يسعى إلى استيعاب التقدم الحالى لدى الشعوب الأخرى ، والتعبير عنه باللغة العربية . ومع أن هذا ليس بالأمر السهل ، فإن التجارب التى تمت حتى الآن تؤكد أنه ليس من قبيل المستحيل (يقوم السوريون منذ فترة بتدريس الطب باللغة العربية ، وهو عمل يستحق التقدير والمحاكاة من باقى كليات الطب فى العالم العربى ، كما استطاعت الصحافة العربية أن تستوعب بلغتها البسيطة والمركزة أحيانا ، كل الأحداث العالمية ، وخاصة السياسية والاقتصادية والفنية) .

وفى لقاءات متعددة مع بعض الإخوة فى الشمال الإفريقى وخاصة من تونس والجزائر ، سمعت بنفسى عدم الرغبة فى ترجمة الثقافة الفرنسية إلى اللغة العربية وقال لى بعضهم : ما الحاجة بنا إلى ترجمة فيكتور

هوجو مثلاً ، وأنا أستطيع أن أقرأه بالفرنسية ، بل وأفهمه أفضل من فهمى لترجمة عربية له!

والواقع أن المشكلة لا تنحصر فى فائدة عملية ، مؤقتة وشخصية ، أى مقصورة على فرد واحد ، أو حتى على جيل بأكمله ، وإنما المشكلة خاصة بأجيال كثيرة قادمة ، وبمستقبل الأمة العربية كلها ، وبإحياء حضارتها الإسلامية التى أثبتت ذات يوم أنها قادرة على الأخذ والعطاء ، ومن ثم على التقدم والازدهار.

ثالثا : أهم مظاهر القصور فى الترجمة الحديثة :

لاشك فى أن الترجمة إلى اللغة العربية فى العصر الحديث (والتى بدأها رفاعة الطهطاوى وتلاميذه الذين ترجموا حوالى ألف كتاب) قد قامت بدور هام فى إطلاع العالم العربى والإسلامى على منجزات العلم الأوربية ، وتعريفه بكبار أدبائه ومفكريه ، ومن الملاحظ أن حركة الترجمة بدأت قوية ومنظمة ، (وخاصة فى عهد محمد على) ، ولكنها ما لبثت أن ضعفت وتشتت نتيجة إهمال الدولة لها ، وتركها فى معظم الأحيان لهوى الأفراد ممن يحسنون ، وممن لا يحسنون .. وسرعان ما تعرضت لعدد من أوجه القصور ومظاهره التى نجملها فى النقاط التالية :

1-عدم ذكر عنوان الكتاب المترجم بلغته الأجنبية ، وكذلك اسم مؤلفه.

2- تغيير عنوان الكتاب فى اللغة العربية رغبة فى جذب الانتباه، أو جريا وراء الصدى الصحفى.

3- عدم ذكر سنة تأليف الكتاب ، ومكان طبعه ، وعلى أىّ الطبعات اعتمد المترجم.

4- عدم ذكر اللغة المنقول منها الكتاب ، والاكتفاء أحيانا بعبارة " نقله إلى العربية أو تعريب فلان.."

5- عدم التقديم بمقدمة توضيحية ، تلخص مضمون الكتاب ، وتشير إلى الصعوبات ، وتبين قيمة الكتاب فى مجاله.

6- عدم التعريف بالأماكن ، والأعلام ، والأحداث التى تحتاج إلى تعريف.

7- عدم الإشارة فى الهوامش لما قد يقابله المترجم من غموض أو صعوبة فى كلمة أو جملة لا يوجد لها مقابل مناسب فى اللغة العربية.

8- عدم وضع أسماء الأعلام والأماكن بلغتها الأجنبية بجوار ما "يقترحه" المترجم لنطقها باللغة العربية.

9- عدم وضع الفهارس التوضيحية فى آخر الكتاب وأحيانا ما يهمل المترجم العربى فهارس الكتب الأجنبية ذاتها.

10- عدم ترجمة الطبعة الأخيرة من الكتاب الأجنبى مع ما نعرفه من سرعة تغير وتطور الأفكار لدى المؤلفين الأجانب فى العصر الحاضر.

11- عدم متابعة المترجمات بفهارس دورية فى كل بلد عربى ، وتبادل هذه الفهارس حتى نتجنب ترجمة الكتاب الواحد أكثر من مرة (مع الإعتراف بأن تعدد التراجم فى مجال الأدب أمر مستحب ، وينبغى تشجيعه، نظرا لتعدد إيحاءات النص لدى المترجمين المختلفين) .

تلك هى - فى رأينا - أهم مظاهر القصور التى صحبت حركة الترجمة إلى العربية فى العصر الحديث ، ونحن نلفت الأنظار إليها لأن الكثير منها ، إن لم يكن كلها ، ما زال مستمرا حتى الآن.

لكن نقدنا لحركة الترجمة لن يكون إيجابيا إذا اقتصر فقط على تلمس مظاهر القصور ، لذلك سوف نقدم اقتراحا ، فى مجال إصلاح تلك الحركة ، يتكون من عدة نقاط ، يمكن أن تكون موضع مناقشة وتعديل . ولمزيد من الوضوح ، سوف نضع هذا الاقتراح فى هيئة إجابات على الأسئلة الخامسة التالية بالترتيب المنطقى الآتى :

1- من يختار الترجمة ؟

2- ما الذى نعطيه الأولوية فى الترجمة ؟

3- من الذى يقوم بالترجمة ؟

4-كيف تتم الترجمة ؟
5-ماذا بعد الترجمة ؟

1- من الذى يختار الترجمة ؟

يفرض هذا السؤال نفسه من واقع ما نراه فى الترجمة ، حتى الآن ، حيث أنها تعتمد فى أغلب الأحيان على هوى الأفراد ، وأمزجتهم الخاصة ، فقليل جدا من هؤلاء المترجمين هم الذين يدركون حاجة الفكر العربى الحقيقية إلى تطعيمه بفكر ما أجنبى .. قليل هم الذين يعرفون مواضع الضعف فى ثقافتنا ومواطن القوة فى ثقافة الآخرين .

أما المشروعات الجماعية التى تتولاها الدولة ، أو المؤسسات الثقافية فهى غالبا ما تكون جيدة ، لأنها تتبع خطة معينة ، وتحاول تحقيق هدف محدد ، ولابد من التنويه فى هذا الصدد بمشروعات مثل " الألف كتاب" فى مصر، وسلسلة المسرحيات العالمية التى تبنته وزارة الثقافة المصرية لفترة ثم خمد ، وسلسلة الروايات العالمية التى قدمتها دار الهلال ، ولكنها مع الأسف كانت تتم على نحو مختصر ، لا هو بالاقتباس ، ولا هو بالترجمة ، وفى الكويت هناك المشروع المستمر الخاص

بترجمة المسرحيات العالمية ، وكذلك المجلة المتخصصة فى نشر أحدث المقالات العلمية والأدبية ..

لذلك تمس الحاجة إلى ضرورة إنشاء مجلس قومى للترجمة على مستوى العالم العربى كله ، يمكن أن يتكون فى إطار جامعة الدول العربية ، أو تحت إشرافها، ويكون أعضاؤه من شتى التخصصات فى الجامعات ، بالإضافة إلى الشخصيات الأدبية والعلمية والعسكرية والسياسية والصحفية ، وتكون مهمة هذا المجلس وضع سياسة متكاملة تحدد الأولويات ، والمجالات الأكثر حيوية فى ميدان الترجمة.

ومن المستحيل بالطبع أن يبدأ هذا المجلس من فراغ ، فلابد أن يكون بين يديه إحصائيات شاملة عما تم ترجمته حتى الآن ، بعد تصنيفه وتقييمه.

ويمكن فى هذا المجال ، بل هو من اللازم ، أن يكلف كل مبعوث من البلاد العربية إلى البلاد الأجنبية المتقدمة ، باختيار خمسة أو عشرة كتب أساسية فى مجال تخصصه ، على أن يقوم هو بترجمة واحد منها على الأقل .

2- ما الذى نعطيه الأولوية فى الترجمة ؟

قد تبدو الإجابة على هذا السؤال الهام من عمل المجلس المشار إليه، ولكننا نسارع فنقترح عليه:

- ترجمة دوائر المعارف العالمية ، العامة والمتخصصة ، فإن ذلك سوف يوفر ترجمة الكثير من المؤلفات السابقة عليها ، أو المعاصرة لها ، والتى اندمجت فيها[20].

ولابد أن نعلن هنا أسفنا الشديد للتعثر -غير المبرر على الإطلاق- فى استكمال ترجمة " دائرة المعارف الإسلامية " حتى الآن إلى اللغة العربية، واقتصارها على جهد فرد واحد كان يقوم بها مشكورًا فى أسوأ الظروف[21].

- مع الإعتراف الكامل بضرورة التكامل فى ترجمة الآداب والعلوم، إلا أن نهضتنا الحالية يلزمها التركيز على جانب العلوم والتكنولوجيا ، ولابد أن يفهم دعاة إدخال التكنولوجيا الحديثة إلى العالم العربى أن رغبتهم لن تتحقق أبدا، ولن تؤتى ثمارها الحقيقية دون أن نعدّ لها العقلية التى تتقبلها، وهذا يستدعى أن نقدم الخلفية التاريخية التى تطورت فيها العلوم والتكنولوجيا ، مصحوبة بالمنهج العلمى الحديث ، الذى حل محل المناهج التقليدية القديمة . وهذا موضوع حيوى نرجو أن تتاح لنا فرصة معالجته فى بحث قريب .

3- من الذى يترجم ؟

لاحظ مندوب العراق فى الأمم المتحدة أن الوقت الذى تستغرقه الترجمة الشفوية إلى العربية يستغرق ضعف الوقت الذى تستغرقه الترجمة إلى سائر اللغات الأخرى[22] ، وهذه الظاهرة الخطيرة تشير إلى ضعف المترجم العربى حتى على هذا المستوى العالمى.

ويذكر الأستاذ إبراهيم زكى خورشيد من بين العقبات الخاصة التى تقف فى سبيل الترجمة " ندرة عدد المترجمين المجيدين الآن حتى أصبحوا لا يجاوزون أصابع اليد الواحدة "[23].

والواقع أننا إذا ألقينا نظرة عامة على الترجمة المكتوبة اصطدمنا بالكثير مما يؤسف له : فالمترجم قد يجيد اللغة الأجنبية ولا يجيد العربية ، أو قد يجيد العربية ولا يجيد الأجنبية ، وأحياناً ما نراه لا يجيد الاثنين معا ، وهنا الكارثة !

ولذلك ينبغى إعداد المترجم إعدادا لغويا ، وتزويده بثقافة واسعة . ومن الطبيعى أن هذا داخل فى الارتفاع بمستوى تعليم اللغة العربية" وإعداد القواميس العربية الجيدة والمفيدة . (مما يؤسف له أن أفضل قاموس عربى حتى الآن هو القاموس الذى وضعه فير الألمانى ، وترجم إلى الإنجليزية) .

ثم يأتى الاهتمام بتعليم اللغات الأجنبية ، والتوسع فى إرسال الطلاب المتفوقين فيها إلى البلاد الأجنبية ذاتها ليعيشوا بين أهلها فترة من الوقت وهذا ملاحظ فى أوروبا على نحو ممتاز ، وخاصة فيما يتم من تعاون متبادل بين الطلاب فى انجلترا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا وإيطاليا.

ولكى نعين المترجم على أداء مهمته الصعبة ، لابد أن نضع بين يديه القواميس متعددة اللغات ، – bl LangueS على أن تكون مسايرة للتطور السريع فيما يتعلق بصياغة وتطوير المصطلحات والتعبيرات الفنية اللازمة.

وأخيرا لابد أن تكون مكافأة الترجمة مجزية ، ونحن مع الأستاذ خورشيد فى دعوته إلى أن ترتفع قيمة الترجمة ، ولكننا نذهب إلى أن ترتبط مكافأة ترجمة كل كتاب بمدى قيمته ، والحاجة إليه ، بدلاً من حسابها بالملاليم والقروش !

4- <u>كيف نترجم</u> ؟

الترجمة أمانة ، وهى فى رأينا تتمثل فى :

1) المحافظة على المعنى "وهذا يستبعد أساسا الترجمة الحرفية التى تخلّ بالمعنى ، وقد تكون أحيانا معقدة ".

2) المحافظة على ظلال المعنى "وهذا يتطلب ضرورة نقل المجازات والكنايات وعبارات التعحب .. الخ ".

3) المحافظة على تقسيم الجمل ، ونظام الفقرات ، وعلامات الترقيم حتى نعيد للغة العربية نفسها دقتها ، ونجنبها خطورة الاستطراد ".

ولابد أن تتميز الترجمة بخاصيتين أساسيتين وهما : الدقة ، والوضوح .

وينبغى أن تنبه هنا إلى أن المترجم العربى كثيرا ما يخدع بقرب معنى تعبير أجنبى من تعبير عربى شائع فيسرع بتسجيله ، دون أن يتنبه جيدا إلى ما قد يكون بينهما من فرق دقيق ، والذى نقترحه فى هذا الصدد أن يتجنب التعبير العربى غير المساوى ، ويبحث عن "تركيبة لغوية" أخرى تكون أكثر أداء للمعنى الأجنبى.

وفى أحيان أخرى ، قد تتعذر ترجمة كلمة أو عبارة .. ومن تجربتى الخاصة فى مقارنة بعض الترجمات العربية على أصولها الفرنسية بالذات ، لاحظت أن المترجم يتخطاها ، دون أية اشارة .. ولو فى الهامش

إنه لا عيب أبدا من وضع الكلمة أو العبارة الأجنبية كما هى فى موضعها ، والإشارة إلى صعوبتها ، مصحوبة بالاقتراح العربى الذى يراه المترجم ملائما لها .

5- ماذا بعد الترجمة ؟

وهنا يبرز العديد من المشروعات التى يؤدى التكامل بينها إلى إحداث نهضة كبرى فى مجال الترجمة بصفة خاصة ، وفى ميدان الحياة الثقافية بصفة عامة، ومن بينها :

- انشاء سلاسل أو مجاميع collections متخصصة فى شتى فروع المعرفة الإنسانية ، كما هو الحال فى أوربا ، بحيث تحتوى مجموعة الطب مثلا على كل ما يمكن أن يتم ترجمته فى هذا المجال مع ضرورة تخصيص قسم من كل كتاب لبيان ما ترجم فى السلسلة.
- إنشاء مجلات متخصصة لنشر المقالات والأبحاث المترجمة عن اللغات الأجنبية ، والتى لا يبلغ حجمها كتابا كاملا "ومجلة الثقافة العالمية التى تصدر فى الكويت مثال جيد على ذلك " .
- متابعة جميع الترجمات بفهارس دورية ، موحدة المصدر ، توزع فى كافة أنحاء الوطن العربى ، حتى نتلافى توزيع الجهود فى ترجمة الكتاب الواحد.
- ضرورة متابعة الترجمة بحركة نقدية ، تقوم بتصنيف ماترجم ، وتقويمه ، وبيان مواطن الجودة فيه ، ومواضع القصور ، وتضع الاقتراحات الإيجابية التى

تساعد المترجم نفسه على التجويد المستمر ، كما تبين لغيره الطريق الصحيح .

- تشجيع الترجمة بعمل المسابقات المتعددة والمتنوعة لأحسن كتاب يترجم فى مجاله ، وإنشاء الجوائز التشجيعية والتقديرية لمن بذلوا جهودا متميزة فى هذا المجال "ولا ينبغى أن يقتصر ذلك على مصر وحدها ، بل ينبغى أن تكون هذه الحوافز على مستوى العالم العربى كله. "

الترجمة والاقتباس:

وينبغى ألا نغفل عملية الاقتباس ، وهى عبارة عن نقل جوهر العمل الأدبى أو مضمونه - دون التقيد بحرفيته - من لغته الأصلية إلى لغة أخرى ، وفى رأينا أن الاقتباس يقف فى مرحلة وسط بين الترجمة والتأليف أو الإبداع ، ومن المعروف أن كل شعوب العالم تقتبس الأعمال الأدبية ، وخاصة المسرحية ، وبذلك لا تحرم أبناءها من مشاهدة جوهر العمل الأدبى "الأجنبى" فى بيئة قومية خالصة .

ومع ذلك ، فمن الأفضل ألا يحول اقتباس النص الأدبى دون ترجمته ، لأن الترجمة فى هذه الحالة سوف تفتح بابا واسعا للمقارنة بين المقتبس والمترجم ، ويمكن للمهتمين بالأدب المقارن أن يجدوا فى ذلك مادة خصبة

للدراسة ، واستخلاص نتائج تساعد على تكوين جيل أدبى قادر على التأليف الخالص.

وفى ختام هذا الفصل يمكننا أن نقرر أن الترجمة مسئولية قومية ينبغى أن يجرى التخطيط الجيد لها ، وأن يتم تفيذها بكفاءة عالية ، من أجل تحقيق أهدافها الأساسية ، وفى مقدمتها : دفع حركة التأليف والإبداع إلى الأمام، وتنشيط الحركة الثقافية ، وتزويد الباحثين العلميين بأحدث ما ينتجه زملاؤهم فى بقية أنحاء العالم وتعريف أبناء العالم العربى والإسلامى بتجارب الشعوب الأخرى حتى يمكنهم أن يقارنوا به تجربتهم ، ويستفيدوا منها كلما أمكن ، وأخيرا فإن الترجمة كانت وستظل دائماً هى أهم وسيلة للتعارف بين الشعوب ، وهو الهدف الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) [سورة الحجرات، آية 13]

إضافة :

وإذا كان العالم العربى محتاجاً اليوم إلى ترجمة العلم والتكنولوجيا ، فإنه فى المقابل من ذلك قادر على أن يقدم للعالم الكثير من إنتاجه الدينى والثقافى . وليس يعنى هذا أن يقوم هو بترجمة إنتاجه إلى اللغات الأخرى (فإن أصحابها يتوجسون دائما ممن يترجم لهم !) وإنما

عليه أن يعرّف به ، وأن يدلّ المترجمين الغربيين عليه ، وأن يتم تشجيعهم على ذلك بالجوائز والمكافأت ، وأن يُغرى دور النشر الغربية للمساعدة فى هذا العمل ، فإنه بذلك يكون قد أسهم بدور فعال فى الحضارة المعاصرة ، وبطريق غير مباشر ، يكون قد حسّن من صورته التى تتعرض فى كل يوم للكثير من ضروب التشويه ، وعرض على العالم حقيقته التى تهاجم من كل جانب .

هوامش الفصل الثانى :

([1]) انظر : فن الترجمة للأستاذ صفاء خلوصى - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986.

([2]) نشير هنا إلى كتابين : الأول بعنوان "فن الترجمة" للأستاذ محمد عبد الغنى حسن – الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966 ، والثانى صغير الحجم نسبيا ولكنه جيد بعنوان "الترجمة ومشكلاتها" للأستاذ إبراهيم زكى خورشيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985.

([3]) انظر : القسم الخاص بالترجمة ، المنشور بندوة مجلة الكاتب الجزائرية ، مايو 1973.

([4]) أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى { لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف } [سورة قريش الآية 1 ، 2] . وقد ذكر المفسرون أن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام.

([5]) انظر : أحمد أمين ، فجر الإسلام ص16 وما بعدها.

([6]) انظر حياة الصحابة للكاندهلوى جـ3 ص 195 تحت عنوان "تعلم الرجل لسان الأعداء وغيرهم للضرورة الدينية."

([7]) يشكك الأستاذ أحمد أمين فى معرفة زيد بن ثابت العبرية، "فجر الإسلام ص175" اعتمادًا على قصر المدة التى تعلمها فيها ، ولكن صغر سنه من ناحية ، وكونه من أهل المدينة المعاشرين لليهود من ناحية أخرى يساعدان على ذلك.

([8]) يروى الجاحظ فى البيان والتبيين أن خالد بن يزيد "كان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء" ، ولكن ابن النديم فى الفهرست "ص340" يقول عن اصطفن الحكيم إنه "نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها "

([9]) انظر : أخبار الحكماء للقفطى "ص123" حيث جاء فى ترجمة ماسرجويه الطبيب البصرى اليهودى أنه كان "عالما بالطب ،

وتولى لعمر بن عبد العزيز ترجمة كتاب أهرن القس فى الطب ، وهو كناش فاضل من أهم الكنانيش القديمة.

([10]) القفطى : أخبار الحكماء ص 286 وم بعدها .

([11]) انظر : إبراهيم زكى خورشيد ، الترجمة ومشكلاتها ص4،6.

([12]) انظر الفهرست لابن النديم – المقالة السابعة ، وأخبار الحكماء للقفطى ص248 "ترجمة يوحنا البطريق"

([13]) Madkour, L' organon d' Aristote dans le monde arabe, Vrin, Paris 1962

([14]) انظر : د. عبد الرحمن بدوى ، التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ، وكذلك : الأفلاطونية المحدثة عند العرب.

([15]) انظر : هنرى كوربان ، تاريخ الفلسفة فى الإسلام " الترجمة العربية " ص 358 وما بعدها ، دار عويدات، بيروت 1966.

([16]) انظر : مناظرة السيرافى ومتى بن يونس فى الإمتاع والمؤانسة 133/1، بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين .

([17]) Gilson, La Philosophie au moyen age, tome 2 p . 344 payot , is 1964.

([18]) حول الأشكال المتنوعة للتأليف عند العرب ، انظر رسالة الدكتوراه التى قدمها الباحث الجاد د. كمال عرفات إلى جامعة القاهرة " أغسطس 1987" بعنوان : الاتصال القرآنى وعلاقته بالإنتاج الفكرى.

([19]) إحصائية منشورة بندوة الترجمة التى عقدتها مجلة الكاتب الجزائرية ، مايو 1973.

([20]) قامت الصين مؤخرًا " 1988 " بشراء حق ترجمة " دائرة المعارف البريطانية " وهى من أجود دوائر المعارف العالمية ، لترجمتها إلى اللغة الصينية .

([21]) نشير هنا إلى المترجم الكبير الأستاذ إبراهيم زكى خورشيد.

([22]) انظر : القسم الخاص بالترجمة الوارد فى ندوة " مجلة الكاتب الجزائرية " مايو 1973 "

([23]) انظر : ابراهيم زكى خورشيد : الترجمة ومشكلاتها ، ص 155.

الفصل الثالث

حركة التأليف في العالم العربي

أتيح لى ، منذ عدة سنوات ، أن أشارك فى مشروع علمى ، يهدف إلى اختيار مجموعه من النصوص العربية لطلاب الجامعات الأمريكية الذين يدرسون اللغة العربية المعاصرة فى بلادهم[1] . وقد تطلبت طبيعة عملى فى هذا المشروع أن أقوم بعملية "مسح" واسعة لكل ما كتب باللغة العربية ، فى شكل كتب أو مقالات ، منذ بداية القرن العشرين حتى مطلع الثمانينات[2]. وقد كان من الطبيعى أن أستخلص لنفسى نتيجة الاطلاع على هذا الحشد الهائل من المؤلفات ، عدة ملاحظات ، راحت تتأكد بكثره الشواهد ، التى قمت - مع زملائى بعد ذلك - بتحليلها تحليلا دقيقا لاختيار أنسب النصوص من بينها[3].

ومن ناحية أخرى كنت أتابع عن قرب معارض الكتب التى أقيمت فى القاهره وبعض العواصم العربيه خلال السنوات الأخيره[4] . ولابد من الاعتراف بأن هذه المعارض قد أصبحت بالفعل "مهرجانات شعبيه للكتاب" يتم فيها طرح ما لدى العالم العربى من إنتاج علمى وثقافى على مختلف المستويات ، ويقبل عليها جمهور

غفير وتحقق مبيعاتها أرقاما قياسيه من الأرباح . ففيها تعرض كتب التراث المختلفة ، المحققة أو المصورة عن طبعات قديمة ، وكذلك المؤلفات الحديثة والمترجمة عن اللغات الأجنبيه ، والمعاجم ، والدوريات ، بالإضافة إلى كتب التثقيف الشعبى ، أو التعريف العام بمجالات معينه فى العلوم والآداب . وقد ساعدتنى الأدله المطبوعه لهذه المعارض مساعدة حقيقية فى تطوير بعض ملاحظاتى السابقة أو تأكيدها .

كذلك لابد من الإشارة إلى إفادتى البالغة من متابعتى لحركة التأليف الفرنسية التى عايشتها أثناء إقامتى فى باريس منذ سنة **1974** حتى **1981** . فقد كلفتنى مجلة "البيان" الكويتيه بأن أكتب لها رسالة شهرية عن الحركة الثقافية فى فرنسا(5) فكان إعداد هذه الرسالة يتطلب منى إطلاعا متنوعا على حركة العلوم والآداب والفنون الغربية ، والتى تعتبر باريس مركزا نشيطا لها ، مما كان له أثر كبير على استخلاص بعض الملاحظات الأخرى التى ساعدتنى بصورة مباشرة ، وأحيانا غير مباشرة ، فى بلورة فكرتى عن حركة التأليف فى العالم العربى .

وسوف أقسم هذه الملاحظات إلى قسمين ، يتناول الأول الظواهر الخارجية المرتبطة بحركة التأليف العربية ، أما القسم الثانى فيتصل بمضمون الظواهر الأساسية فى عملية التأليف ذاتها :

الظواهر الخارجية:

أول ما يبدو أن الإنتاج الثقافى الموجود فى العالم العربى ضخم جدا . ولكن هذه الضخامة ما تلبث أن تتضاءل كثيرا إذا ما قورن حجم هذا الإنتاج بالإنتاج العالمى . فتبعا لإحصائية حديثة قامت بها هيئة اليونسكو فى بداية السبعينات[6] تبين أن العالم العربى ينتج 1 : 100 من نسبة الإنتاج الثقافى العالمى. وأن 75% من هذه النسبة الضئيلة جدا يتمثل فى الكتب الدراسية والتعليمية . ومن المعروف أن هذا النوع من الكتب لا يحسب فى حركة الإنتاج الثقافى لشعب من الشعوب .

فإذا تجاوزنا الآن مسألة الكم ، وجدنا أن الإنتاج العربى الثقافى متنوع إلى حد كبير . لكن هذا التنوع لا يمكن وصفه بالتوازن المعقول بين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية . ومن الواضح أن مجموعة العلوم الإنسانية - بما فيها الآداب- تحظى بالنصيب الأوفر من جانب المؤلفين والناشرين معا . ولا شك فى أن هذه الظاهرة تعتبر انعكاسا واضحا لواقع غير متوازن فى العالم العربى نفسه .

وملاحظة أخرى تتصل بتنوع الإنتاج الثقافى العربى . وهى أنه لا يمكن وصفه أيضا بالتكامل ، بمعنى

أن الفروع المختلفة لا تتعاون فيما بينها لتمثيل المعرفة الإنسانية فى إطار متناسق . ففى نفس الوقت التى تصدر فيه مؤلفات قيمة للغاية عن الاقتصاد المعاصر ، ووسائل تحليل المعلومات . وإمكانيات الحاسب الآلى فى مجال المعرفة . نلاحظ استمرار ظهور مؤلفات عربية تتناول السحر ، والتنجيم ، وأسرار الحروف مما يدخل فى باب العلوم السرية القديمة.

وتقودنا هذه الملاحظة الأخيرة إلى مشكلة أخذت فى السنوات الأخيرة تبرز بوضوح على الساحة الثقافية ، وهى ما يطلق عليها "مشكلة الأصالة والمعاصرة" وتكمن جذور هذه المشكله فى وجود نوعين من المؤلفات ، بدأ التنافس بينهما منذ ظهور المطبعه فى العالم العربى وهما : كتب التراث ، والكتب المترجمه . ومن الطبيعى أن يكون لكل منهما فريق ، وأن يتحمس كل فريق لما يجيده ، لكن المشكلة تفاقمت عندما راح كل فريق ينكر على الآخر ما يفعله . وبدلاً من أن يبحث الفريقان معا عن أسلوب مناسب للتعايش المثمر الذى يمزج بين القديم والحديث، زادت حدة النزاع بينهما واتسعت مسافة الخلاف إلى حد القطيعه تقريبا ، وهذا هو أحد الأوضاع السيئه التى تعانى منها الثقافه فى العالم العربى المعاصر.

وإذا أردنا الاسترسال فى آثار تلك الظاهره إلى النهايه وجدنا وضعا آخر أكثر سوءا . فقد أصبح

الناشرون العرب يقبلون على نشر أى كتاب قديم حتى ولو كان عديم القيمة باعتباره من "التراث" ، واعتمادا على أنه يجد إقبالا من جمهور القراء ، فى حين أنهم يترددون كثيرا فى قبول أو نشر أى مؤلف حديث حتى لو كان جيد المحتوى ، خوفا من الإقدام على مغامرة مجهولة العواقب .

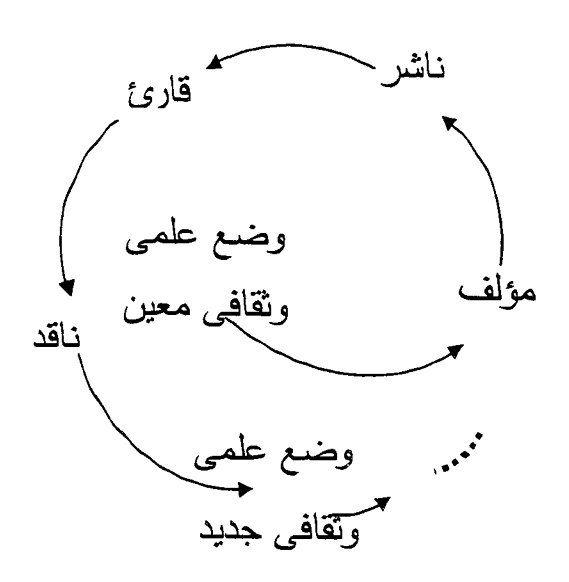
إننا لا نتجاوز الحقيقة حين نعلن هنا أن معظم الناشرين العرب يلعبون دورا كبيرا فى إفساد الحركة الثقافية فى العالم العربى . فبدلا من أن يقوموا بواجبهم المهنى فى تسهيل مهمة الكاتب بنقل ما لديه للقراء أصبحوا - نتيجة ظروف متعدده ومتشابكه نحجم هنا عن ذكرها - هم الذين يتحكمون وحدهم فى توجيه الحركة الثقافية كلها .

إننا نتصور "عملية التأليف الصحيحة" تتم فى حركة دائرية مفتوحة وتحتوى على عدة عناصر أساسية تتوالى على النحو التالى:

1- وضع علمى وثقافى معين.
2- مؤلف يتأثر به ويستلهمه ويحاول تطويره أو تغييره أو تجاوزه.
3- ناشر يقوم بنقل ما يكتبه المؤلف إلى القراء.
4- قارئ يستجيب ، أولا يستجيب ، لما يقدم له.

5- ناقد يساعد القارئ ، وينبه المؤلف إلى مواطن القوة والضعف ، فيساعد بذلك على إيجاد وضع علمى وثقافى جديد..

وهذا الوضع الجديد إما أن يدفع المؤلف السابق إلى معاودة الكتابة مرة أخرى ، أو مؤلفا أخر، يتفق معه أو يختلف ، إلى الكتابة من جديد[7] وهكذا تمضى حركة التأليف فى دائرة مفتوحة تأخذ فى الاتساع شيئا فشيئا حتى تصل إلى الإزدهار المنشود . وفيما يلى رسم توضيحى لهذه العملية:



إن كل عنصر من هذه العناصر المذكورة أساسى فى تنشيط حركة التأليف. ولا شك فى أن غياب أى منها أو عدم أدائه لدوره المخصص له ، أو خروجه عن مكانه المحدد له فى الترتيب السابق - يحدث اضطرابا فى الحركة ، وغالبا ما يصيبها بالضعف أو التوقف ، فمثلاً إذا جاء دور الناشر قبل دور المؤلف (كما يحدث حاليا فى العالم العربى حين يكلف الناشر أحد المؤلفين بالكتابة فى موضوع معين ، لأنه هو الموضوع الذى يقبل عليه القراء ، ويحقق مبيعات كبيرة) فإن الوضع العلمى والثقافى لن يحدث فيه أى تغيير ، بل على العكس سيزداد سوءا ، وبذلك يتصل طرفا الدائرة أحدهما بالآخر ، فتنغلق ، ولا ينتج عنها الاتساع الذى أشرنا إليه .

لكننا قد نظلم الناشرين العرب إذا اتهمناهم - وحدهم - بإفساد حركة التأليف فى العالم العربى المعاصر ، فهناك متهم آخر ينبغى ألا تغفل عن خطورته، وهو ذلك النظام التعليمى المتبع فى كثير من الجامعات العربية ، ذات الأعداد الكبيرة . فقد ساعد هذا النظام على أن يكتب أساتذة الجامعات "مبادئ العلوم" التى يدرسونها للطلاب فى شكل "مذكرات" مرقومة فى البداية على الآلة الكاتبة ، ثم مطبوعة بعد ذلك فى هيئة كتب . ولأن هذه المذكرات مضمونة التوزيع، فإن الناشرين يتسابقون على طبعها ، والتفنن فى إخراجها ،

وطرحها فى المكتبات ومعارض الكتب ، بعد أن كانت محصورة فى نطاق الجامعات فقط .

إن هذه المذكرات تمثل نسبة كبيرة جدا مما تقدمه المطبعة العربية فى الوقت الحاضر. وتتمثل خطورتها فى أنها مجرد مختصرات أو تلخيصات منزوعة الهوامش ، والمراجع ، والمصادر فى معظم الأحيان ، أى أنها غير موثّقة ، بالإضافة إلى أن نسبة الإبداع الشخصى فيها تكاد تكون منعدمة . وهو الأمر الذى ساعد ، فى الفترة الأخيرة ، على شيوع سرقتها ، وتبادل الاتهام بين أصحابها.

لقد قدمنا حتى الآن عدة ملاحظات خارجية تتعلق بظواهر عامة تصاحب حركة التأليف العربية . ومن الملاحظ أن بعض هذه الظواهر لا يمكن اعتبارها من صميم عملية التأليف ذاتها ، وإنما هى من الأمور العارضة لها ، لكنها تؤثر فيها تأثيرا بالغا ، كما هو الحال بالنسبة إلى دور الناشرين.

أما بالنسبة إلى المجموعة الأخرى من الملاحظات فهى تتعلق بظواهر أساسية فى حركة التأليف ذاتها . وسوف نكتفى بالحديث عن "عشر ظواهر فقط" نعتبرها ذات أهمية خاصة فى محاولة التشخيص التى نقوم بها:

الظاهرة الأولى : غياب المتخصص فى موضوع واحد فى مجال معين:

لماذا يبدو المؤلف العربى الحديث ملولاً إلى هذا الحد ! فهو لا يصبر طويلاً على الاهتمام بموضوع واحد فى علم من العلوم . وهو دائما متنقل بين موضوعات كثيرة ، وأحيانا متباعدة جدا ، لاشك أنها تشتت جهده ، ولا تصل به فى أغلب الأحيان إلى حد الإجادة التامة فى موضوع بعينه ، بل على العكس تضفى على دراسته طابع التسطيح ، وتبعدها عن التعمق والتأصيل.

ويكفى أن نسأل عن واحد فقط من الدارسين العرب كرّس كل جهوده مثلاً لدراسة شاعر عربى كبير كالمتنبى . إن عشرات الكتب والمقالات الجيدة ظهرت عن المتنبى ، ولكننا ، على الرغم من تقدم البحث الأدبى الحديث ، لا نستطيع عند الحاجة أن نستفتى منها واحدا يكون هو "المرجع المعتمد" فى عصر الشاعر ، وحياته ، وشعره ، وأثره ، فيمن جاء بعده ، وبالجملة : نرجع إليه عندما نريد أن نعرف أى شئ عن المتنبى .

ونحن لا ننكر على أى كاتب أن يتناول أى موضوع يرى من نفسه الرغبة فى تناوله ، والقدرة على دراسته . لكننا نقرر فقط أننا نفتقد الكاتب المتخصص الذى "يستمر" اهتمامه بالموضوع الواحد إلى أن يتمكن من وضع الدراسة - الأم فيه ، ثم تأتى بعد ذلك وجهات

النظر المختلفة أو الدراسات الجانبية كما تشاء : تعلق أو تنقد أو تصحح ، وهكذا يعلو باطراد بناء المعرفة ، بدلاً من أن تتناثر لبناته دون نظام .

الظاهرة الثانية: المؤلف يكتب فى موضوعات مختلفة ، أو متباعدة فى مجال معين

من الواضح أن هذه الظاهرة هى الوجه الآخر للظاهرة الأولى . ومن المعروف أن النصف الأول من القرن العشرين قد شهد مجموعة من خيرة الدراسين والكتاب فى العالم العربى ، وأن عددا منهم لا تقصر قامته عن أمثاله من الكتاب العالميين الذين ظهروا تقريبا فى نفس الفترة (مثال : الدور الثقافى الذى أداه العقاد فى مصر لا يقل أبدا عن الدور الثقافى الذى أداه بول فاليرى فى فرنسا) .

لكننا نلاحظ أن معظم هؤلاء الكتّاب قد وزعوا اهتمامتهم بين موضوعات كثيرة جدا ، وهو أمر كانت تتطلبه طبيعة عصرهم بدون شك . فقد كان تطبيق المنهج فى الدراسات الإنسانية ناشئا ، والوضع الثقافى والعلمى بحاجة إلى التعريف بكل الجوانب ، ولو تعريفا خاطفا . وهذا هو الحال مثلاً بالنسبة إلى :

" التأريخ للأدب العربى " فى عصوره المختلفة . فقد قام بهذا العمل كل من جورجى زيدان ، والرافعى ، والزيات ،

وأحمد أمين من منطلقات مختلفة، ولكن ما تركوه لم يخرج عن كونه مجرد مختصرات تبتعد قليلا أو كثيرا عن التأريخ الحقيقى للأدب العربى فى كل مظاهره منذ نشأته حتى الوقت الحاضر.

أما المثال الأكثر تعبيرا عن الظاهرة التى تهمنا هنا ، فيمكن تقديمه من أعمال أستاذ جليل ، هو الشيخ محمد أبو زهرة ، الذى عمل تقريبا فى مجال واحد هو ، مجال الفقه الإسلامى(8)، وكتب فى ذلك عدة مؤلفات قيمة عن أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة فى العالم الإسلامى : أبو حنيفة ، مالك ، الشافعى ، أحمد بن حنبل ، ابن حزم الظاهرى .. ومن الواضح أنه كان يريد أن يملأ فراغات كثيرة فى الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة . لكننا نتساءل هنا : ماذا كان يحدث لو أعطى الشيخ أبو زهرة كل جهوده لمذهب واحد فقط من هذه المذاهب .. إذن لأصبحت لدينا الآن فيه "الدراسة – الأم" ولأمكن لمن جاء بعده أن يضع الدراسة الثانية ، والثالثة وهكذا . .

الظاهرة الثالثة : المؤلف الواحد يكتب فى أكثر من مجال

تعتبر هذه الظاهرة امتدادا طبيعيا للظاهرة الثانية ولكنها أخطر منها بكثير. فإذا كانت الموضوعات المختلفة أو المتباعدة فى المجال الواحد مشتتة للجهد،

ومبعدة عن التأصيل المنشود ، فإن المجالات المختلفة أكثر تشتيتا ، وأسوأ أثرا .

ومن أبرز نماذج هذه الظاهرة : العقاد ، الذى ملأ الدنيا وشغل الناس فى عصره ، فقد كتب شعرا ، ورواية ومقالات سياسية ، ونقدا أدبيا ، ودراسات إسلامية . وكذلك د. طه حسين ، الذى هزّ الحياة الثقافية فى عصره هزا عنيفا : كتب روايات ، ونقد تاريخيا ، ونقدا أدبيا ، ودراسات إسلامية ، كما ترجم عددا من المسرحيات الإغريقية ، وشارك فى تحقيق عدد من كتب التراث العربى.

ويمكن القول بأن كلا من العقاد وطه حسين يبقى بكل "أعماله" على وجه العموم ، ولكنه لا يبقى بواحد منها على نحو خاص . وهذا يفسر لنا أننا درسنا بالفعل أشياء كثيرة ، ولكننا عند الفحص الدقيق ما زلنا نكتشف أنها بحاجة إلى معاودة الدراسة من جديد . بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك حينما نعلن أن هذين الكاتبيْن كانا لهما تأثيرهما الشديد فى تأكيد وشيوع ظاهرة عدم التخصص التى ما زالت موجودة حتى اليوم فى الثقافة العربية المعاصرة .

الظاهرة الرابعة : المؤلف الواحد يكتب بمستويات متفاوتة في مجال واحد أو في مجالات متعددة

:

يرجع شيوع هذه الظاهرة ، فى المقام الأول ، إلى انتشار "الصحف والمجلات" التى أصبحت مجالا مفتوحا لكل المؤلفين العرب ، إلى جانب الكتب التى كانت فيما مضى هى المجال الوحيد لنشر دراساتهم المتخصصة . ولا شك فى أن الصحافة بإلحاحها اليومى أو الأسبوعى ، أو الشهرى تتطلب من هؤلاء المؤلفين أن يقدموا إليها "أشياء مبسطة ، وعلى وجه السرعة" لإرضاء رغبة القارئ المتعجل .

وإذ كنا لا نسمع عن اسم مؤلف عربى واحد يحجم عن نشر آرائه من خلال الصحف والمجلات ، فإننا على العكس نرى الكثير منهم مندفعا فى هذا التيار ، السريع التدفق ، والذى أصبح له ، مع الأسف ، تأثيره الشديد على حركة التأليف العربية .

فما الذى يدفع باحثا إلى أن ينفق عدة سنين أو شهور فى بناء تصميم جيد لموضوع ينشره فى كتاب ، فى حين أن الفرصة أمامه متاحة لكتابة عدة مقالات ، يومية أو شهرية ، تنهض على الملاحظات الشخصية ، وأحيانا على الذكريات(9) ، دون الحاجة إلى الرجوع إلى المصادر ، أو الاستعانة بالوثائق ؟!

وبالمناسبة ، نحن لسنا ضد تبسيط المعرفة لجمهور القراء ، ولكننا ضد التبسيط المخلّ الذى يُفقد الباحث قدرته الأساسية على التعمق فى حقائق الأشياء، وتحديد المشكلات أو مناقشتها ، وتقديم الحلول المناسبة لها . وهذا ما لا يتأتى غالبا فى إطار الصحف اليومية أو الشهرية.

إننى أقدر كثيرا مؤلفا غزير الإنتاج ، هو الأستاذ أنور الجندى ، فهو يحسن تجميع الوثائق حول موضوع واحد ، ويجيد عرضه ، ولكننى أعتبره مثالا واضحا على الظاهرة التى نتحدث عنها . فقد راح ينشر فى أيامه الأخيرة عددا كبيرا جدا من الكتيبات ، الصغيرة الحجم ، التى تحمل عناوين ضخمة ، لا يمكن بحال أن تعالج فى مثل هذا المستوى . ونكتفى هنا بذكر عناوين بعض هذه الكتيبات : "الخلافة الإسلامية" ، "مصححو المفاهيم الإسلامية : الغزالى ، ابن تيمية ، ابن حزم" ، "الفنون والمسرح" ، "حركة الترجمة"[10].

ومرة أخرى نقول إن التبسيط عمل ضرورى . ونحن محتاجون إليه، وخاصة فى مرحلتنا الثقافية الحالية ، لكنه ينبغى ألا يجذب إليه الباحثين الذين تحتاجهم الدراسات الجادة ، والأعمال الكبيرة المتعمقة

الظاهرة الخامسة : العناوين الفضفاضة:

يساعد الجو العلمى والثقافى ، أثناء تدهوره ، على شيوع عدة ظواهر متشابكة تعتبر "ظاهرة العناوين الفضفاضة" من أبرزها . وتنتشر هذه الظاهرة عندما يستمر صمت النقاد عما يقدم عليه بعض المؤلفين من وضع عناوين أكبر من الموضوعات التى يتناولونها فى كتبهم ، إما رغبة فى الشهرة ، أو مجاراة للأسلوب الصحفى الذى يسعى لجذب انتباه القراء ، أكثر من سعيه إلى تعليمهم. ومن الواضح أن الدافعين لا يتعارضان .

إن كمية ضخمة جدا من المؤلفات العربية فى القرن العشرين تتسم بهذه الظاهرة التى يكون فيها عنوان الكتاب غير مطابق تماما لمضمونه . وسوف أكتفى هنا بمثال واضح ، أكنّ لصاحبه كل احترام ، لكن هذا لا يمنع من نقده . وهو كتاب "مناهج البحث عند مفكرى الإسلام" للأستاذ الدكتور على النشار . وإنما اخترت هذا الكتاب بالذات لأنه يحظى بمكانة طيبة لدى كل الدارسين المحدثين تقريبا . والواقع أنه كتاب جيد ، بل رائد فى بابه . ومن الطبيعى أن يتوقع القارئ من عنوانه أن المؤلف يتناول فيه (كل مناهج البحث لدى مفكرى الإسلام) ولكنه حين يدرسه أو يقرأه يتبين له أن موضوعه الأساسى ينحصر فى "نقد ابن تيمية لمنطق

أرسطو" . ولا شك أن هذا الموضوع الأخير يعتبر جزءا صغيرا جدا من مناهج البحث الإسلامية . وهكذا يتضح أن العنوان أكبر بكثير من المحتوى الحقيقى للكتاب .

الظاهرة السادسة : موضوعات لا تعبر عن مشكلات حقيقية:

تشيع فى حركة التأليف العربية نسبة كبيرة جدًا من المؤلفات التى تتناول موضوعات لا تساير ما يمر به العالم العربى من مشكلات واقعية ، أو يتطلع إليه من آمال . ومن الغريب أن الجامعات العربية كان عليها أن تولى هذا الأمر عناية خاصة ، غير أن ما يصدر عنها - هى نفسها - من رسائل الماجستير والدكتوراه - التى تنشر بعد ذلك فى شكل كتب - يعكس قدرا كبيرا من اللامبالاة بالمشكلات الحقيقية التى تتعلق بالأمة العربية والإسلامية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها[11].

والواقع أن هذه الظاهرة تبدأ مع بداية تخصّص طلاب الجامعات فى مرحلة الدراسات العليا . فكثيرا ما نجدهم حينئذ حيارى أمام "موضوع يختارونه للدراسة" وهذا يعنى - فى حد ذاته - غيابا للإحساس بالمشكلات الحقيقية فى مختلف مجالات دراساتهم السابقة . وهناك عدد كبير جدا من طلاب الدراسات العليا يتركون لأساتذتهم أو لزملائهم اختيار الموضوع الذى يدرسونه .

وهنا تتدخل اللوائح العقيمة فى إبعاد بعض الطلاب عن موضوعات تمت دراستها من قبل ، ولكنها ما زالت بحاجة إلى دراسات جديدة ، وتوجههم إلى "موضوعات لم تدرس من قبل" حتى ولو كانت عديمة القيمة والفائدة العلمية .

ومع ذلك فإن هذه العمليات قد تكون مفيدة للطلاب أنفسهم ، وخاصة فى مرحلة تدريبهم على منهج البحث وأساليبه ، ولكن مخاطرها تبدو عندما تنشر أعمالهم فى شكل كتب من المفروض أنها تمثل الإنتاج العلمى والثقافى فى العالم العربى.

إن الأمثلة على هذه الظاهرة أكثر من أن تحصى لكن الاستشهاد عليها بالأمثلة سوف يجرنا إلى مشكلات لا نود الدخول فيها . ويكفى أن نشير هنا -على سبيل التندّر- إلى ما نجده فى توصيات إحدى رسائل الدكتوراه التى درس فيها الباحث أحد أعلام البلاغة العرب ، فقد "اكتشف" أن ألف سنة قد مرت على وفاة صاحبه ، وأنه لذلك يقترح إقامة مهرجان عالمى للاحتفال به !

الظاهرة السابعة : غياب الحلول المبتكرة أو الرؤى الجديدة:

يذكر حاجى خليفة فى مقدمته الممتازة لكتاب "كشف الظنون" أن "التأليف" على سبعة أقسام ، لا يؤلف "عالم عاقل" إلا فيها ، وهى:
إما شئ لم يسبق إليه فيخترعه ،
أو شئ ناقص يتممه ،
أو شئ مغلق يشرحه ،
أو شئ طويل يختصره ، دون أن يخل بشئ من معانيه ،
أو شئ مفترق يجمعه ،
أو شئ مختلط يرتبه ،
أو شئ أخطأ فيه مصنفه فيصلحه[12].

ويهمنا هنا القسم الأول التى تحتاج إليه حركة التأليف العربية إحتياجا شديدا . وقد وضعنا إلى جانب الحلول المبتكرة للمشكلات : الرؤى الجديدة لها، بمعنى أن طرح المشكلة طرحا صحيحا يساعد كثيرا على حلها ، تماما كما أن الملاحظة الجيدة للظواهر فى البحث التجريبى مما يؤدى إلى صحة تفسيرها .
لكن الملاحظ أن الكثرة الغالبة من المؤلفات المتخصصة فى الدراسات اللغوية ، والأدبية ، والدينية تقوم على ما يشبه "الاتباع" . ويبدو ذلك بوضوح من

المادة التى تتناولها . فهى تتناقل فيما بينها عددا محدودا من النصوص المأخوذة من كتب التراث ، دون السعى إلى اكتشاف نصوص أخرى غيرها تفتح الباب لتفسيرات جديدة ، وتدفع بالتالى إلى التطور المنشود فى هذه الدراسات .

ومن المعروف أن الابتكار يعتمد على القدرة على إطلاق الفروض الكبيرة ومحاولة إثباتها . وقد كان حدثا علميا مثيرا عندما نشر المستشرق الأسبانى آسين بلاثيوس دراسته عن تأثّر دانتى فى الكوميديا الإلهية بعناصر إسلامية[13] ، ويقرب منه ما اقترحه المستشرق الفرنسى بلاشير من ضرورة وضع تقسيم جديد لتاريخ الأدب العربى ، لا يقوم على ما جرى العرف عليه من تقسيم هذا الأدب تبعا للدول والعصور السياسية[14].

ولا يفوتنا فى هذا الصدد أن نشير إلى أن الدراسين الغربيين ، أو المستشرقين ، ما زالوا هم الذين يملكون زمام المبادرة فى ميدان الابتكار ، على حين أن المؤلفين العرب يكتفون إما بمتابعة آرائهم ، أو بالرد عليها وتفنيدها.

وهذا يقودنا إلى ما شاع فى الفترة الأخيرة مما يمكن أن نطلق عليه "ظاهرة الرد على آراء المستشرقين ولا جدال فى أن هذا عمل جيد فى حد ذاته ، وخاصة عندما يتم باللغة التى يكتب بها المستشرقون أنفسهم . لكن الذى يحدث أننا نسعى بأنفسنا إلى نقل ما كتبوه إلى

اللغة العربية ، ثم نستنفد وقتا وجهدا فى الرد عليه ، وتفنيده باللغة العربية أيضا . ومن الآثار السلبية لهذه الظاهرة أنها أدت إلى وقوف المؤلفبن العرب فى موقف الدفاع ، ينتظرون ما يتساقط على أرضهم من كتابات المستشرقين لكى يقوموا بعد ذلك بتفنيده ، دون أن يتقدموا هم أنفسهم فى مجال الابتكار ، أو التفسير الجديد للظواهر التى يدرسونها.

أما فى مجال العلوم التجريبية فلسنا بحاجة إلى التأكيد على أن المؤلفين العرب يتبعون المؤلفين الغربيين " حَذْوَكَ النعلَ بالنعل " كما يقول التعبير العربى القديم ، وتكاد تكون المؤلفات العربية فى هذه المجالات ترجمة أمينة ، أو أحيانا حرفية ركيكة لما فى المؤلفات الغربية

.

إن الابتكار فى مجال التأليف على الرغم من أنه قد يحدث فجأة ، إلا أنه يكون عادة وليد سنوات طويلة من الجهد الفردى ، ونتيجة لجو علمى وثقافى معين(15) ومن الواضح أن الوضع العلمى والثقافى الحالى فى العالم العربى لا يشجع كثيرًا على مثل هذا الابتكار . ومع ذلك ، فمن الضرورى تجاوز هذه الدائرة المحكمة .

الظاهرة الثامنة : عيوب لغة التأليف:

نقصد باللغة هنا معناها الواسع الذى يشمل اختيار الألفاظ ، وصيغ الأفعال، وأدوات الربط ، وبناء

الجمل ، واستخدام المصطلحات ، وطرائق التعبير العلمى المتعارف عليها ، وبالجملة : الأداة الأساسية التى يقدم بها مضمون العمل العلمى أو الثقافى.

ولا شك أن لغة التأليف العربى قد تعرضت خلال نصف القرن العشرين لتغيرات جذرية تحتاج حقا إلى مزيد من الدراسة . ويكفى أن نشير هنا إلى نوعين من التأثير ساعدا على هذه التغيرات ، وهما:

(أ) تأثير اللغات الأجنبية ، والأعمال المترجمة عنها.

(ب) تأثير اللهجات العامية.

وقد نسلم بالقول الفرنسى المشهور "إن الأسلوب هو الرجل" ، وذلك فى مجال الفنون والآداب ، ولكننا فى مجال البحث العلمى ، والدراسات المتخصصة نتطلب مستوى شبه موحد من اللغة التى يتفاهم بها المشتغلون فى ميدان معين ، إن لم يكن فى مجموعة متقاربة من المجالات . وأهم خصائص هذه اللغة أن تكون واضحة ، ودقيقة[16].

والملاحظ أن العالم العربى قد أصبح يحتوى حاليا على أكثر من "لغة عربية" إن صح التعبير- فهناك لغة فى المشرق العربى يمثلها كتاب سوريا ولبنان، ولغة فى المغرب يمثلها كتاب المغرب وتونس ، وبينهما تتردد لغة مصر التى راحت هى الأخرى تتأثر بلغة كلا الفريقين . وهذا هو السبب فى أنه عندما ظهرت مجلة "فصول" فى مصر ، فوجئ المثقفون بلغة مختلفة تماما عما ألفوه فى

مجال النقد الأدبى . ومما بلغنى فى هذا الصدد أن الكاتب الروائى نجيب محفوظ قد اندهش من مقال نقدى مكتوب فيها عن أحد أعماله ، واعترف بأنه لم يفهمه !

فإذا انتقلنا إلى اللغة ذاتها فوجئنا بضروب من الفوضى المنتشرة على نحو واسع . ولا شك أن أحد أسباب إنتشارها : صمت النقاد الذين لا يجرؤون ، فيما يبدو ، على تناول هذا الجانب الحساس . أجل ! فإن "اللغة" لدى المؤلف العربى ما زالت تعتبر جزءا من "خصوصياته" التى لا يقبل لأحد أن يتعرض لها00 اللهم إلا بالمديح ! ومع ذلك ، فما أشد إهماله لها ، وعدم حرصه على استخدامها الاستخدام الصحيح !

إن المؤلفات العلمية الجيدة مكتوبة دائما بلغة جيدة . وقد قال كونديك إن "العلم الجيد ليس إلا لغة أجيد رصفها" ، وسوف نسجل هنا بعض ملاحظاتنا فى هذا الصدد على سبيل "الإشارات التحذيرية" ، تاركين لعلماء اللغة دراسة هذا الموضوع الحيوى:

(أ) إهمال علامات الترقيم مما يحدث فوضى فى العبارات وعدم ترابط بين الجمل، كما يساعد على الاستطرادات المخلّة.

(ب) الأخطاء المطبعية ، ورغم أننا ننسبها دائما إلى عمّال المطبعة ، فإن المؤلف يتحمل مسئولية كبيرة نتيجة عدم متابعة عمله ، حتى مراحله الأخيرة، ومنها مراجعة تجارب الطباعة[17].

(جـ) الأسلوب الإنشائى الفضفاض الذى يعتمد على التشبيهات والمجازات فى غير موضعها الذى تتطلبه ويحضرنى مثال على ذلك : فقد وصف أحد المؤلفين الحالة الثقافية المزدهرة فى العصر العباسى بأنها " بستان تفتحت فيه شتى "الورود والرياحين " !

(د) اختلاط لغة الأدب بلغة البحث العلمى . ومن المقرر أن كلتا اللغتين تختلف عن الأخرى . فبينما تقترب الأولى من الذاتية تنزع الثانية إلى الموضوعية ، وبينما يغلب على الأولى الطابع العاطفى والانفعالى ، تتسم الثانية بالطابع العقلى والمنطقى .. الخ.

(هـ) إهمال مطالع الفقرات بعدم مراعاة الدقة فى استخدام العبارات العلمية المتعارف عليها فى البحث العلمى من أمثال : (لاشك) ، (ومن المقرر) ، (ومن الواضح) ،(ومهما يكن من شئ) ، (وفى رأيى أو فى رأينا) ، (ونؤكد) ، (ونحسب) ، (ونظن) ، (ونرجح) ... الخ.

إن هذه العبارات – على الرغم من إهمال المؤلفين العرب لها فى أغلب الأحيان – هى التى تعطى للبحث أو المقال تماسكه المنطقى ، وتدفع أفكاره إلى التطور المطلوب ، الذى ينتهى دائمًا إلى نتيجة محددة.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن لغة الصحافة العربية ربما كانت أكثر استجابة للمضمون الذى تقدمه للقراء . ونعتقد من جانبنا أنه إذا بحثنا عن أسباب ذيوع بعض

كبار الصحفيين العرب لوجدنا أن "لغتهم" تأتى فى مقدمة هذه الأسباب . وعموما فإن هذه النقطة تحتاج إلى دراسة أوسع.

الظاهرة التاسعة : غياب الأعمال الأساسية ، والأدوات اللازمة للبحث العلمى

ونقصد بها دوائر المعارف العامة ، والمتخصصة والمعاجم اللغوية ، الموحدة اللغة والثنائية ، والمعاجم الموضوعية التى يختص كل منها بمجال معين.. ولسنا ننكر وجود "بعض" هذه الأعمال ، المكتوبة باللغة العربية كما لا ننكر جهد من قاموا بها إلا أننا نلاحظ أنهم غالبا أفراد تنوء قدراتهم بمثل هذه الأعمال التى تتطلب فرقا كاملة من العلماء والمتخصصين.

إن وضع القاموس فى الوقت الحاضر لم يعد مهمة فرد واحد ، بل إنه مهمة هيئة متكاملة تضم إلى جانب العلماء : الإداريين ، والفنيين ، والرسامين ، والمصورين ، وحتى المطبعة اللازمة لإنجاز مثل هذا العمل .

وهذا هو السبب فى أن الأعمال العربية المتناثرة فى هذا المجال لا يمكن الاعتماد الكامل عليها . فهى ناقصة ، كما لا تجرى متابعتها ، لأن القاموس أو دائرة المعارف ليس مجرد كتاب يؤلفه صاحبه ويمضى ، إنه

عمل مفتوح يتطلب استمرار تصحيحه ، وتنقيحه ، والاختصار منه ، والإضافة إليه .

أليس من المؤسف حتى الآن عدم توافر قاموس أساسى "معتبر" للغة العربية ، يساعد القراء والمتخصصين على الإفادة السريعة منه ، كما هو الحال بالنسبة إلى القواميس الأساسية فى معظم لغات العالم ؟

فإذا انتقلنا إلى الموسوعات ، وجدنا ظاهرة أخرى فبالإضافة إلى أنها فى الغالب تقوم على جهود فردية ، نجدها لا تقدم المعلومات بالحياد الكامل ، بل على العكس تتبنى وجهة نظر الكاتب . ومن أحدث الأمثلة على ذلك : "الموسوعة الفلسفية " التى أصدرها أ.د. عبد الرحمن بدوى ، والتى جمع فيها عددا كبيرا من المواد والشخصيات الفلسفية ، ولكنها يغلب عليها طابع "الدراسة" التى تحمل وجهة نظر صاحبها دون أن تكتفى بتقديم المعلومات الأساسية فى الموضوع الذى تتناوله . ونتيجة للفردية فى وضع مثل هذه الموسوعة نجدها "غير مستوعبة" لمواد وشخصيات أساسية فى المجال الفلسفى.

كذلك يحتاج البحث العلمى إلى كشّافات الكتب ، والموضوعات ، والمؤلفين، والأعلام .. الخ . ومن الواضح أن هذه الكشافات لا تتوافر على النحو اللائق فى العالم العربى . وما يوجد منها لا يخرج عن كونه مجرد محاولات متناثرة، إذا لبّت حاجة الدارس فى نقطة

واحدة ، فإنها لا تسعفه فى كثير من النقاط . وهنا تكمن إحدى صعوبات البحث العلمى فى العالم العربى.

الظاهرة العاشرة : عدم متابعة حركة التأليف بالتصنيف والنقد :

العالم العربى مشغول ، فى الوقت الحاضر ، بمشكلات كثيرة ، معقدة ومتشابكة . ولا شك فى أن هذه المشكلات تأخذ من اهتمام أبنائه الكثير ، كما أنها تضعهم فى حالة من "اللامبالاة" التى نشهدها فى جميع المجالات تقريبا. ولا تشذ حركة التأليف عن هذه الحالة . فالمتابعة فيها ، سواء بالسيطرة على الإنتاج الثقافى أو بالنقد ، تكاد تكون معدومة وربما يساعد على ذلك صعوبة الاتصالات بين المؤلفين فى البلد العربى الواحد ، فضلاً عن البلاد العربية المختلفة. وقليل هم الباحثون الذين يلمّون إلماما كافيا بكل ما يصدر فى مجالهم الخاص . وما أشد حيرة طلاب الدراسات العليا بعد أن يقع اختيار الواحد منهم على موضوع معين ، ثم يضطر للتأكد من أن هذا الموضوع قد تمت دراسته من قبل أم لا فلا يجد من (أو ما) يدله على ذلك !

وإذا كانت مهمة التصنيف تقع فى المقام الأول على عاتق دور الكتب، ودور النشر ، ومراكز البحوث (وهذه كلها مقصّرة كما هو واضح) فإن مهمة النقد من

صميم عمل النقاد. وهؤلاء شبه غائبين ، أو أنهم موجودون ولكنهم صامتون !

إن عملية النقد فى داخل حركة التأليف هى التى تمنحها الحيوية ، وتبعث فيها مزيدا من النشاط . وهذا أمر معروف فى ثقافتنا العربية القديمة. فقد كان المتنبى واحدا من أكبر شعراء العربية ، ومع ذلك فقد تم نقد شعره بعنف ، كما تم أيضا الدفاع عنه ، وتفنيد هذا النقد ومحيى الدين بن عربى ، الصوفى المحيّر ، هوجم ودوفع عنه ، وفى كلا الحالين كسبت الثقافة العربية والإسلامية من وراء ذلك الكثير.

وفى النصف الأول من القرن العشرين ، ظهر فى العالم العربى كتابان أثارا عاصفة من النقد والتعليقات ، هما ("فى الشعر الجاهلى") لطه حسين ، و"(الإسلام وأصول الحكم") لعلى عبد الرازق . ولا ينكر علينا أحد أن النقد الذى ووجه به هذان الكتابان قد بعث الكثير من الحركة ، والحيوية فى الفكر العربى الحديث.

لكن خفوت صوت النقد فى العالم العربى المعاصر يجعل حركة التأليف تسير فى طريق مسدود ، فضلاً عن استمرار ما يشيع فيها من ضروب الفوضى ، وانعدام الضوابط الأولية ، التى تعتبر من أساسيات البحث العلمى . ولا شك فى أن هذا الخفوت له أسبابه وليس من المستحيل الكشف عنها ، وتوضيحها ، تمهيدا لتجنبها .

وأخيرا فإن الظواهر التى ذكرناها فيما يتعلق بحركة التأليف العربى قد تدعو إلى اليأس ، لأنها فى مجموعها سلبية . ولكنها كأى حركة ، غير متوقفة ، ولن تلبث أن تجد وسط هذه الفوضى طريقها الصحيح ، بفضل المتابعة المستمرة من جانب النقاد الذين ينبغى أن يؤدوا دورهم بقدر أكبر من الجدية ، بل والفدائية ، وكذلك من جانب المؤلفين الذين ينبغى أن يواجهوا المشكلات الحقيقية فى مجتمعهم متجنبين الانجراف فى تيار وسائل الإعلام السريعة ، ثم من جانب الناشرين الذين ينبغى عليهم أن يحترموا مهنتهم الأصيلة ، وميثاق شرفها غير المعلن ، وفى النهاية ، من جانب القارئ ، الذى بيده أن يضع حدا لكل المهازل التى تجرى أمامه فى حركة التأليف ، ويعتبر هو أيضا مسئولا عن المشاركة فى استمرارها .

إن حركة التأليف العربية هى المقياس الحقيقى لحركة العقل العربى، وقدرته على متابعة التطور والتقدم وليست مشكلات الثقافة الحالية فى العالم العربى إلا النتائج المباشرة لحركة التأليف نفسها . لذلك فإن محاولة الاقتراب من هذه الحركة، بتشخيص أمراضها ، وملاحظة تطوراتها ، ثم اقتراح الحلول المناسبة لها – أمر على درجة كبيرة من الأهمية ، إن لم نقل إنه المفتاح الحقيقى لحل كثير من مشكلات التخلف التى يعانى منها العالم العربى فى الوقت الحاضر.

خاتمة :

والآن . . أرجو أن يكون عنوان الكتاب قد اتضح معناه الآن ، وذلك على الأقل من خلال العرض المتجاور لهذه الدوائر الثلاث التى تشمل(تحقيق التراث أوإحيا ءه ، والترجمة ، والتأليف) . لقد ظهر من خلال بحث كل دائرة على حدة أن هناك الكثير من المظاهر المشتركة ، والروابط المتبادلة التى تدعو إلى ضرورة التعاون بين العاملين فيها ، وتقضى بالتالى على عوامل الفرقة والانعزال .

إن التراث ينبغى أن يدخل فى نسيج الفكر العربى المعاصر ، حتى تتحق ظاهرة الامتداد الضرورية لوصل الماضى بالحاضر . ولكى يحدث ذلك لابد من البحث عن مخطوطاته ، وإخراجها فى صورة جيدة ، وتسهيل قراءته والبحث فيه. وكما أن التراث ضرورة للمؤلفين العرب من أجل تزويدهم بالمادة العلمية التى يستخدمونها فى عملهم ، فإنه لازم أيضا للقارئ العربى لكى يزوده بالمرجعية التى تساعده على فهم التاريخ والوعى بالحاضر ، تمهيدا لاستشراف المستقبل.

أما الترجمة من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية فهى ضرورة آنية ومستمرة . وقد تأكد لنا أن الأمم المتقدمة لا تستغنى أبدا عن الترجمة ، بل إنها كلما زادت تقدما زاد حرصها على الترجمة ، تحقيقا للقول

المأثور " ليس الأسد إلا عدة خراف مهضومة ". فكيف الحال بالشعوب النامية التى تحتاج بشدة إلى المزيد من المعارف. ومن المقرر أن المعرفة الموجودة لدى الآخرين لا تتم الاستفادة الكاملة منها إلا عن طريق اللغة . وقد ثبت فى عشر السنوات الماضية خطأ القول بأن علماءنا فى الطب أو الهندسة أو العلوم إذا أجادوا اللغة الانجليزية لم تكن هناك حاجة إلى ترجمة هذه العلوم إلى اللغة العربية ما دامت الفائدة متحققة. لقد أضاع هؤلاء على الأمة العربية الكثير ، لأنه بموتهم يختفى ما حصّلوه من علم أجنبى ، وتظل الأجيال الناشئة بحاجة إلى بدء المسيرة من جديد بدلا من أن تجد لديها ما تبنى عليه . كذلك فإن لغة واحدة كالإنجليزية لم تعد هى وحدها مستودع المعرفة العالمية . فقد بدأت فى التقدم شعوب لا تتحدث الانجليزية . ونحن محتاجون إلى الاستفادة من علمها وتقدمها . فهل نظل نلهث وراء هؤلاء وأولئك ، أم من الأفضل أن ننقل علومهم وثقافتهم إلى لغتنا ونكوّن بذلك رصيداً خاصاً بنا ؟!

إن النتائج لا تأتى مصادفة . لذلك عندما يتم إحياء التراث ، وتزدهر الترجمة ، يصبح التأليف الإبداعى متاحا . لأنه سوف يجد فى كل منهما العناصر اللازمة لدفعه وتطويره ، سواء فى مجال المادة والمضمون ، أو على مستوى المنهج والأساليب . ونحن نعلم جيدا أن المعرفة لا تنبثق فى العقل من فراغ . وإنما

تحتاج إلى دوافع واستثارات ، كما أنها تتطلب مشاهدات ورؤى ، قد تتوافق معها وقد تتصادم . ولا ينبغى أن نغفل هنا عن الأثر القوى لقانون المحاكاة والمنافسة ، فهو غريزى فى طبائع البشر . إن العمل العلمى أو الثقافى الجيد يدفع المؤلفين غالبا إلى الاستفادة منه ، وإلى تقليده ، بل إنه قد يجعلهم يتفوقون عليه. ومن هنا تبرز أهمية كل من تحقيق التراث ، والترجمة لبعث النشاط والحيوية فى دائرة التأليف ذاتها .

إن الاعتراف بالحق فضيلة . ومن الإنصاف أن أسجل هنا أننى لست أول من ينبه إلى أهمية العلاقة الوثيقة بين التحقيق والترجمة والتأليف . فقد اجتمع فى سنة 1914 " طائفة من الشباب ، تمتلئ نفوسهم غيرة على العالم الإسلامى، ويطيلون التفكير فى وسائل إصلاحه والنهوض به ، ألف بين أفرادها الشعور بالألم من موقف الشرق وخموله ، والإيمان بوجوب العمل على تنبيه ، والأخذ بيديه ، ورفع مستواه"[18] عرفت باسم "(لجنة التأليف والترجمة والنشر)". وقامت هذه اللجنة بدور هام فى ترجمة وتأليف ونشر عدد من أروع الأعمال المطبوعة فى مصر والعالم العربى كله . وما زال يكفى أن نقرأ على أى كتاب اسم اللجنة أو شعارها لندرك على الفور وبكل اطمئنان، أنه كتاب جيد فى بابه .

حدث هذا فى بداية القرن العشرين ، وما زالت الحاجة إليه أشد فى مطالع القرن الحادى والعشرين .

لكن المؤسف بحق أن أعود فأدعو بنفس الدعوة منفردا وليس فى مقدرتى تنفيذ مثل هذا العمل العظيم ، بينما دعت إليه من قبل جماعة ، وكانت قادرة بإمكانيتها الذاتية حينذاك على تنفيذه .

وهنا أؤكد من جديد أن العمل العلمى لم يعد فى الوقت الحاضر - ولن يصبح فى المستقبل - بإمكان أفراد ، أو حتى جماعات صغيرة تلتقى على وحدة الفكر والشعور ، وتدفعها النوايا الطيبة ، وإنما أصبح من مسئولية الدول والحكومات ، بل والتنظيمات العالمية : تنشئ له الجماعات ، وتقيم مراكز البحوث، وتضع له الخطط والأهداف ، وتحشد له الطاقات البشرية ، وتيسر له الأدوات والأجهزة والوسائل الفنية ، وتحقق له البيئة المناسبة لكى يعمل فى أفضل جو ممكن ، ويقدم بالتالى الناتج المتوقعة منه .

وليس يعنى هذا أن يتضاءل دور العلماء - الأفراد ، وإنما ينبغى أن يتم الاستفادة منهم فى أطر تنظيمية وهياكل علمية محكمة . وفى اليوم الذى يدرك فيه العالم العربى قيمة الفكرة التى تنبثق فى عقل إنسان ويسرع بالتالى إلى احتضانها ، ورعايتها حتى تنضج وتتحقق ، فإنه يكون قد وضع قدمه على الطريق الصحيح لتقدمه .

وفى ختام هذه الخاتمة ، أتوجه بالدعاء إلى الله الكريم أن يمنح عالمنا العربى المزيد من العلماء

والباحثين ، وأن يهيّئ مجتمعاتهم لرعايتهم وحسن الإفادة منهم . فإن هذا هو باب المستقبل الكبير ، الذى لا مفر أمامهم من أن يدخلوا منه إلى العالم المعاصر، ويشاركوا بفعالية فى منجزاته .

هوامش الفصل الثالث :

([1])اشترك معى فى هذا المشروع الذى استمر عامين كل من د. اليزابيث سارتين ، وهى باحثة إنجليزية متخصصة فى دراسة السيوطى ، وتقوم حاليا بتدريس التاريخ الحديث فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، والباحثة الأمريكية كريستن بريستاد التى أنجزت أخيرا رسالتها للدكتوراه فى جامعة هارڤارد بالولايات المتحدة .

([2])كانت مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة هى ميدان العمل الأساسى لهذا المشروع ، وهى مكتبة حديث ومنظمة . وقد استعنت أيضًا بمكتبة جامعة القاهرة ، وكذلك مكتبة كلية دار العلوم ، الغنية بمجموعة من أندر المطبوعات العربية .

([3])من بين أكثر من خمسمائة نص ، قمنا باختيار ثمانين نصاً فقط ، تمثل جوانب النشاط العربى والإسلامى فى الوقت الحاضر . وكانت عملية الاختيار تخضع لمقاييس موضوعية ، ثم يجرى بعدها شرح الألفاظ والعبارات المشكلة فى النص ، وأخيرًا تتم ترجمة معظم مفرداته إلى اللغة الإنجليزية

([4])من أهمها " معرض الكتاب الدولى الذى تم فى مدينة الدوحة بقطر – فبراير 1986.

([5])نشرت هذه الرسالة بعنوان " رسالة أوربا " فى مجلة البيان التى تصدرها رابطة الأدباء بالكويت على مدى عامين : 1979 ، 1980

([6])عدد خاص من مجلة الكاتب الجزائرية – مايو 1973.

([7])وهذا يشبه ما يطلق عليه علماء التربية المحدثون Feedbaek ويترجمونه بالتغذية المرتجعة .

([8])بالإضافة إلى مجال الفقه ، كتب عن المذاهب الإسلامية (علم الكلام) ، والمسيحية (مقارنة أديان).

(9)من أهم الأمثلة على ذلك مجموعة كبيرة من من المقالات كتبها الأستاذ عباس خضر تحت عنوان (هؤلاء عرفتهم) ونشرت فى مجلة الثقافة بالقاهرة

(10)كلها من مطبوعات دار الاعتصام بالقاهرة .

(11)انظر الفصل الذى كتبناه عن " المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة " فى كتابنا : الفلسفة الإسلامية فى العصر الحديث – دار الثقافة العربية 1993

(12)كشف الظنون ، ص 35 .

(13)نشر هذا البحث بالإسبانية سنة 1939 . ولم يترجم حتى الآن إلى اللغة العربية ، رغم استفادة كثير من الدارسين العرب منه . انظر آخر دراسة بالعربية ظهرت فى هذا الموضوع للدكتور صلاح فضل بعنوان "العناصر الإسلامية فى الكوميديا الإلهية " القاهرة 1982.

(14)ترجم هذا البحث زميلى الدكتور أحمد درويش بعنوان " تقسيم جديد للأدب العربى" فى "دراسات عربية وإسلامية " الجزء الثانى ص 116 – 120 .

(15)انظر فى هذا الموضوع فصلاً بعنوان "نظرية الاختراع ودورها فى البحث العلمى "المنشور فى كتابنا: منهج البحث بين التنظير والتطبيق" ، القاهرة1994 .

(16)انظر ترجمتنا لمقال : اللغة العلمية المعاصرة لجيرار بيتيو بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ص52 ، نوفمبر 1983 .

(17)من الأمور اللافتة للنظر أن الكتب الأجنبية تكاد تخلو تماما من مثل هذه الأخطاء المطبعية . وليس هذا بالأمر العجيب . فإن مراجعتها وتصحيحها يتمان بدقة ويقظة بالغتين .

(18)من كلمة المرحوم أحمد امين الذى تولى رئاستها على مدى ثلاثين عاما ، وكان من أعضائها : أمين مرس قنديل، وعبد الحميد العبادى ، ومحمد صبرى ابو علم ، ومحمد عوض محمد ، ومحمد بدران ، كما انضم إليهم عقب عودته من البعثة زكى نجيب محمود

- انظر ما كتبه عنها أ. د. محمود الطناحى فى كتابه القيم "مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى" ص 124 وما بعدها .

الفهرس

الفصل الثالث:
